البلاغة العربية

فى

أساليب القرآن

الدكتور
محمد السيد موسى

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
٢٠٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

الحمد لله رب العـالمين والصـلاة والسـلام علـى أشـرف الأنبيـاء وسـيد المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين إلى يوم الدين .. وبعد

فـإن القرآن الكريـم معيـن لا ينضب ، وثمـر لا يجـف ، يقـف أمامـه الدارسون على طول المدى لينهلوا من عطائه المتجدد .. فيغوض الـدارس فـى أعماقه ، ويجوب أجواءه وأركانه ، فإذا خرج إلى شاطئ أصدافه ، وجـد نفسـه فى أمس الحاجة إلى التزود من زاده ..

وقديما وقف العرب وهم فى قمة بلاغتهم عاجزين أمـام أسلوب القرآن الذى طالما ألفوا أشعارهم وخطبهم من نفس نسيجه وكلماته ، ولكنهم ما فطنـوا إلى روحه التى تسرى فيه من أمـر الله ، كمـا تسـرى الـروح فـى الجسد فتهبـه إعجاز الحياة .. فيرى الناظر المتأمل إعجاز الحرف فى مكانه من الكلمة زيادة أو حذفا وإعجاز اختيار الكلمة ووضعها موضعها فـى سياق الجملـة وعلاقتـها بأخواتها وتأثير ذلك فى فحوى الموضوع وبنائه ، وهو نفسه السياق Contrex الذى صنفه جون دى بوا فـى قاموسـه - الألسنية والعلـوم اللغويـة - إلـى ثلاثـة مستويات : السياق اللفظى وهو مجمل النص الذى توجد فيه وحدة لغوية محددة ويقصد بذلك موقع تلك الوحدة من خلال علاقتها بالوحدات الأخرى التى تسبقها والتى تليها ، والسياق الموقعي : وهو مجمـل الظـروف الطبيعيـة والاجتماعيـة والثقافية التى تقع فيها الجملة أو الحديـث ، والنحـو والـتركيب وهـو المسـتخدم كثيرا فى بناء السياق (1)

*** مشكلة البحث :**

تكمن مشكلة البحث فى وجود أساليب بلاغية فى سياقات القرآن الكريـم تتباين بحسب موقعها وموضعها ، فمنها مـا يكـون فـى فواتـح السـور أو انتقـال

(1) Jean Dulois Dictionaries de linguistic et des suences du language, Paris, lerousse, 1994, P. 116..

الحديث من موضوع إلى موضوع ، حاملا الكلمة بإعجازها المستخدم من حيث مجيئها وحيدة فى القرآن ، أو مجيئها مكررة ولكن فى مواضع مختلفة بصيغ متباينة ، ومنها ما يأتى بأسلوب الوصف الذى يؤديه غير تلك الكلمة المختارة فى ذلك الموضع ..

**** هدف البحث ومنهجه :***

يهدف البحث إلى الوقوف على بعض أساليب القرآن البلاغية ، واستخراج أسرارها التركيبية ، وبيان كيفية التخلص ومواضعه ، والوقوف على أسرار موضع الكلمة فى الأسلوب القرآنى وبيان الأغراض البلاغية للوصف من خلال السياق القرآنى .. وقد تمثل منهج البحث فى الوقوف مع فواتح السور القرآنية واستخراج إبداع الدلالة فى الخبر والإنشاء الواقع بها ، والوقوف مع بعض مواضع الفعل ومتعلقاته وجمع الكلمات التى وقعت صفة وبيان العلاقة بينها وبين الموصوف من خلال سياقه .. ويقوم البحث ـ أيضا ـ فى منهجه بجمع موضوعات مختلفة لرؤية كيفية الانتقال بينها فى سورة قرآنية مختلفة ، ثم أخيرا نأتى للوقوف على أسرار الإعجاز اللغوى من خلال الوقوف مع كلماته ..

**** خطة البحث :***

اشتملت خطة البحث على الفصول الآتية :

- **الفصل الأول : إبداع التركيب ودلالته**
- **الفصل الثانى : إعجاز الوصف**
- **الفصل الثالث : التخلص**
- **الفصل الرابع : إعجاز الكلمة**
- **الخاتمة**

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

الفصل الأول

إبداع التركيب ودلالته

*** دلالات التراكيب**

جاء أسلوب القرآن الكريم فريداً لا يبارى ولا يناهض ، وقد جاءت الكلمات والحروف في نسيجها وسياقاتها مجيئاً له دلالته من حيث اختيار اللفظ وصلته بغيره من الكلمات وهيئته المختارة ، وسوف نقف مع بعض السياقات المختلفة لنأخذ من أسرارها ما يأذن به الله تعالى ..

- الخبر والإنشاء في فواتح السور

يُعدّ الاستهلال للسورة مدخلا بليغا إلى موضوعاتها ، ولذلك تباينت فواتح السور من الأسلوب الإنشائي بأنواعه المختلفة وبلاغته ، إلى الأسلوب الخبري بأغراضه البلاغية ، ومن الاستهلال الإنشائي لسور القرآن الكريم :

*** الاستهلال بالنداء والأمر**

جاء النداء في مطلع بعض السور [1] بـ (يأيها الذين آمنوا) إذا كان في معرض التكليف ، فيكون النداء خاصا بالمؤمنون لفتا لهم وإثارة لإيمانهم ، وتعظيما من شأنهم ، ومن ذلك قوله تعالى :

((يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)) المائدة (١)

فجاء النداء بإثارة حمية الإيمان في نفوسهم أولا ، ثم جاء الأمر بالوفاء بالعقود ، وهو أسلوب إنشائي آخر أدى تركيبه مع النداء إلى تمكين الأمر بالوفاء في نفس المخاطب .. وقد جاءت بداية هذه السورة متفقة مع آخر السورة التي قبلها - سورة النساء - لتسير في مضمار واحد ، حيث انتهت سورة النساء ببيان جانب من الحقوق المالية في الميراث ، لكي تؤدّى هذه الأمانات وتلك

---

[1] جاء في عشر سور (النساء – المائدة – الحج – الأحزاب – الحجرات – الممتحنة – الطلاق – التحريم – المزمل – المدثر)
انظر الزركشي في البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – طبعة دار التراث – ج١ – ص١٧٨

الحقوق إلى أهلها وفاءً بأمر الله وقضائه ، ومن ثم جاءت بداية سورة المائدة تحمل الأمر بالوفاء بالعقود ، فهى نسيج من نسيج ..

وهذه السورة الكريمة - سورة النساء - قد بدأت بالأمر بالتقوى فى قوله تعالى :

((يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ منها زَوْجَها وبَثَّ منهما رِجَالاً كثيرًا ونِسَاءً ، واتقوا اللهَ الذى تَسَاءَلُونَ به والأرْحَامَ ، إنَّ اللهَ كان عليكم رَقِيبا))

وهذا الأمر بالتقوى هو ما انتهت به السورة السابقة - أيضا - حيث يقول المولى عز وجل فى ختام سورة آل عمران :

((يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصبِرُوا وصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لعَلَّكُم تُفلِحُون))

وكان النداء فى مطلع سورة النساء بقوله تعالى : (يا يها الناس) لأن الخطاب بعده جاء فيما يشترك فيه جميع الناس ، من أصل الخلقة من آدم - عليه السلام - وخلق زوجها - حواء - من تلك النفس ..

ولأن المقام مقام تربية الناس على التقوى ، فقد جاء السياق بـ (ربكم) ، فى قوله (اتقوا بكم) ، وكذلك الشأن مع افتتاح سورة الحج ، حيث يقول تعالى :

((يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ))

وقد جاء النداء بيأيها الناس - أيضا - لشمول هذا الأمر جمع الناس .. وأضاف (الزلزلة) إلى (الساعة) لإبراز هول المشهد ، فتظهر الحركة العنيفة

من لفظ الزلزلة وتكرار حرفيّ الزاى واللام يمثل تلك الحركة بتكرارها ورجفتها ، بينما يقوم لفظ (الساعة) بإحضار تلك الصورة فى سرعة وكأنها تقع فى هذه الساعة .. وقد زاد من تصوير هول المشهد ، الإخبار عن (زلزلة الساعة) بـ (شئ) على الإبهام والتنكير التهويلى ، ثم الوصف بـ (عظيم)

ومن تناسب بداية هذه السورة مع سابقتها (سورة الأنبياء) التى انتهت بقوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ احْكُم بِالحَقِّ ، وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ))

وهو دعاء من النبى ﷺ لربه أن يحكم بينه وبين المكذبين ويقضى بينهم ، فجاءت بداية سورة الحج وكأنها جواب على ذلك بأن الحكم والقضاء يوم القيامة الذى عبر عنه بزلزلة الساعة (إن زلزلة الساعة شئ عظيم) .

وقد اختلف النداء فى مطلع سورتيّ المزمل والمدثر ، تبعا لاختلاف الحالة التى عليها المخاطَب وهو النبى ﷺ فقال تعالى فى سورة المزمل : **((يَاأَيُّهَا المُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيلَ إِلاَّ قَلِيلا))** ، وقال فى سورة المدثر : **((يَاأَيُّها المُدَّثِّرُ قُم فَأَنذِر))** .

فالمزمل ، قال ابن عباس - رضي الله عنه - النائم ، وهو الذى تغطى بغطاء النوم ، فالسياق يعبر عن حالة النوم ليلا ، بغطاء فوق ما يلبسه النبى ﷺ ، ولذلك جاء الخطاب بـ (المزمل) وأبرز المشهد الأمر بـ (قم اليل) ، وقد يكون الأمر بالقيام بالليل ، مجازا عن الصلاة ، أى صلّ الليل ، وآثر التعبير بالقيام عن الصلاة إشارة إلى طول القيام فيها وكثرة تلاوة القرآن التى لا تكون إلا حال القيام فى الصلاة .

أما الخطاب بـ (المدثر) فلم يكن النبى ﷺ فى حالة نوم ، وإنما كان ذلك فى أول الوحى ، عند ذهب إلى السيدة خديجة – رضى الله عنها – وقال دثرونى دثرونى[1] بسبب ما أخذه من رؤية جبريل عليه السلام .. ولذلك ناسب هذا النداء ، الأمر بعده بالقيام للإنذار ، فهذا المقام يختلف عن القيام السابق فى سورة المزمل ، ولذلك ناسب كل مقام مقاله .

الاستهلال بالأمر وحده فى بعض السور القرآنية دون النداء[2] ، وهو فى خطاب النبى ﷺ خصوصا ، يقول تعالى :

((قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ..)) الجن (١)

أمر الله نبيه ﷺ أن يذكر لقومه أن الجن استمعوا إلى القرآن الكريم وجاء الفعل بالبناء للمجهول (أوحى) للعلم بالموحِى – سبحانه – وهذا الحذف يناسب جو المشهد واستماع الجن للقرآن ، فكانوا بمثابة الغيب لا يراه أحد ، فهم محذوفون من الرؤية البصرية ، فحُذف لفظ الفاعل من السياق إشارة لهذا الغيب الذى اختص به الله . والله تعالى أعلم .

الاستهلال بالأمر فى المعوّذات

* (قل هو الله أحد) هذا أمر بالجهر بالتوحيد الخالص ولذلك جاء التصريح بلفظ الجلالة (الله) دون الرب للتأكيد على الوحدانية وتخصيصها بالله سبحانه ولإثارة الاهتمام بما بعده ، وقد آثر التعبير بقوله (أحد) دون (واحد) مثلا ،، لأنها "صفة مشبهة مثل : حسن ، وصيغة الصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف فى موصوفها بأنى ذاتىٌ له ، فلذلك أوثر "أحد" هنا على (واحد) لأن (واحد) اسم فاعل لا يفيد التمكن . و (واحد) و (أحد) وصفان مصوغان

---

[1] الدثار : الثياب الذى يلبس فوق الثياب الذى يلى الجسد .

[2] ورد ذلك فى ست سور (الجن – العلق – الكافرون – الصمد – الفلق – الناس)

بالتصريف لمادة متحدة ، وهى مادة الوحدة ، يعنى التفرد . وقال ابن سينا : إن (أحد) دال على أنه تعالى واحد من جميع الوجوه ، وأنه لا كثرة هناك أصلا . وذلك متضمن لكونه سبحانه منزها عن الجنس والفصل ، والمادة والصورة ، والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما يُثلم الوحدة الكاملة والبساطة الحقة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شئ أو يساويه سبحانه شئ"[1] .

* ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ)) - ((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ))

لماذا كانت الاستعاذة فى الأولى : (برب الفلق) وفى الأخرى : (برب الناس) ؟!

إن فى ذلك نكتة بلاغية ينم عنها السياق .. وقبل ذلك ، فإن هذا الاستهلال فى السورتين يتناسب مع خواتيم ما قبلها .. فقد انتهت سورة الإخلاص بقوله تعالى : (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفى ذلك إثبات الوحدانية المطلقة لله تعالى ، فلا مثيل ولا نظير له سبحانه ، ثم كانت بداية سورة الفلق : (قل أعوذ برب الفلق) . فجاء الأمر بالاستعاذة برب الفلق ، أى الذى (شق) كل شئ فأخرج منه الحياة ، ولا يستطيع أحد ذلك إلا الله ، وهو ما ذُكر فى غير موضع (إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوى) - (فَالِقُ الإِصْبَاحِ) ، "والفلق كل شئ انشق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعها ، وخص فى العرف بالصبح ، فقيل : فلق الصبح" [2]

[1] ابن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – الدار التونسية للنشر – الجماهيرية العربية الليبية ـ ٣٠/ ٦١٤

[2] البقاعى – نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور – تحقيق – عبد الرازق المهدى –ط١– دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٥– ٦٠٤/٨

فخص هنا الاستعاذة برب الصبح ، لما فيه من النور والضياء بعد الظلام والحياة بعد الموت ، وذلك أنسب لما ذكر من المستعاذ منه ، وهو (من شَرِّ مَا خَلَقَ) على العموم و (من شرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ) على الخصوص ، وهو الليل بظلامه ، "وكان شر الأشياء الظلام ، فإنه أصل كل فساد ، وكانت شرارته مع ذلك وشرارة السحر والحسد (المذكورة في السورة أيضا) خفية ، خصها بالذكر من بين ما عمه الخلق ، لأن الخفى يأتى من حيث لا يحتسب الإنسان فيكون أضر " [1]

ولما ختمت هذه السورة بذكر التعوذ من الحسد : (ومن شر حاسد إذا حسد) ، والحسد أصل العداوة بين الإنس والجن وهو يصدر - أيضا - من طبيعة بشرية يطلقه بعض الناس لبعضهم ، كانت البداية فى سورة الناس : (قل أعوذ برب الناس) فتوافقت مع خاتمة (سورة الفلق) ، "وعُرِّف (رب) بإضافته إلى (الناس) دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقيه الشيطان فى قلوب الناس فيَضِلون ويُضِلّون ، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس" [2].

وخُص الذكر بالاستعاذة برب الناس ، لأن هذه السورة جاءت "متضمنة للاستعاذة من شر خاص ، وهو الوسواس ، وهو أخص من مطلق الحاسد ، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التى أصلها كلها الوسوسة ، وهى سبب الذنوب والمعاصى كلها .. وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وجه تأخرها - أى سورة الناس - عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية ، ألا ترى عموم قوله : (من شر ما خلق) وإبهام (ما) وتنكير (غاسق) و (حاسد) والعهد فيها استعيذ من شره فى سورة الناس وتعريفه ونعته ، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ فى تحصيل ما قصدت الاستعاذه منه" [3]

---

[1] نفسه ٦٠٤/٨

[2] التحرير والتنوير ٦٣٢/٣٠

[3] نفسه ٦١٢/٨

الاستهلال بالقسم

أقسم (1) المولى عز وجل بكثير من مخلوقاته في مطلع بعض سور القرآن الكريم ، وهذا القسم يرشد العقول إلى أهمية المقسم عليه ، ويؤدي إلى التشويق إلى ما يأتي بعده ، ويأتي القسم في أول السورة مناسباً لما أقسم عليه ، كقوله تعالى :

((والسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ . واليَوْمِ المَوْعُودِ . وشَاهِدٍ ومَشْهُودٍ)) البروج (1-3)

فالقسم هنا بالسماء وبروجها ، وفي هذا مناسبة القسم لما أقسم عليه ، فقد تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود ، ولما كانت الأخاديد خطوطا مجعولة في الأرض مستعرة بالنار أقسم على تضمنها بالسماء بقيد صنعه من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجا وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار .. وأمّا مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة ، مع ما في القسم به من إدماج الإيمان إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها ووعيد أمثالهم المعرّض بهم ومناسبة القسم بـ (شاهد ومشهود) على اختلاف تأويلاته ، قريبة من مناسبة القسم باليوم الموعود(2)

وقوله تعالى :

((واللَّيْلِ إذَا يَغْشَى . والنَّهَارِ إذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنْثَى إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)) الليل (1-4) .

---

(1) يُعدّ القسم – دون جوابه – من الأساليب الإنشائية

(2) التحرير والتنوير ٣٠/٢٣٧-٢٣٨

فالقسم هنا بالليل ، والنهار ، وخلق الزوجين ، ثم يأتى المقسم عليه ، وهو سعىّ الناس .. والعلاقة بين القسم والمقسم عليه ، علاقة ترابطية ، فهى أولا من مظاهر قدرة الله على الخلق والإبداع ، فالله خلق الإنسان بنوعيته ، وخلق له الليل للنوم والراحة ، وخلق النهار بنوره ليعمل ويجد ، ولابد أن سعى الإنسان سيختلف كاختلاف الليل والنهار ، فمنه الظالم المظلم كظلام الليل ، ومنه المشرق النافع كنور النهار وضيائه ، وفى هذا تذكير بالحساب على السعى .

وقد يرد القسم ببعض أوقات اليوم فى موضع آخر من مطلع سورة أخرى ، ولكن بدلالة أخرى مغايرة لما سبق ، كقوله تعالى :

((وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)) الضحى (١-٣)

فجاء القسم بوقتين محددين : الضحى برقته وشفافيته ، والليل ليس على إطلاقه ، وإنما (إذا سجى) إذا صفا ورق نسيمه ، وهذا ليناسب المقسم عليه (ما ودعك ربك وما قلى) ما تركك ربك وما كرهك .. "فأطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف ، ويقسم الله سبحانه - بهاتين الآيتين الرائقتين ، فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس"[١]
وقوله تعالى :

((وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ))

---

[١] سيد قطب – فى ظلال القرآن – ط٢٥ – دار الشروق – القاهرة –١٩٩٦–٣٩٢٦/٦

فلم يأت القسم هنا بالليل ولا بالنهار ولا بالشمس أو نحو ذلك ، وإنما جاء بما يشمل كل الأزمان ، ، والعصر .. وفى ذلك مناسبة للمقسم عليه ، فالعصر هو عمر الإنسان ، إن لم يغتنمه بالعمل الصالح ، عصره وأصبح فى خسر .

*** الاستهلال بالاستفهام**

جاء الاستفهام فى صدر ست سور من القرآن الكريم [1] .. وقد جاء الاستفهام فى أكثرها يحمل غرض التقرير الذى جاء بصيغة (هل) فى سورتي : (الإنسان) و (الغاشية) .. يقول تعالى :

((هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّن الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)) الإنسان (١)

وقوله تعالى : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ..)) الغاشية (١)

(هل) تدل على التحقيق ، إذ هى بمعنى (قد) ، وقد زادها تحقيقا ، مجئ الفعل الماضى بعدها فى السورتين (هل أتى) و (هل أتاك) ..

وقد يكون من الصواب أن نقول : إن الأسلوب الإنشائى عن طريق الاستفهام بـ (هل) يأتى فى الأمور الهائلة ، والأحداث الجسيمة لمزيد من التشويق والتنبيه على أهمية الخبر ، كصدد سورة الإنسان .. فالاستفهام حمل غرض التقرير ، أو الإقرار بحقيقة الإنسان ، بأن الله أوجده بعد أن لم يكن شيئا يذكر لحقارته وضعفه [2] ، وقد حمل الاستفهام غرضا آخر ، وهو الإنكار على ما ينطع بأن لا يترك سدى ، (هل أتى) أى بوجه من الوجوه ، (على الإنسان)

---

[1] هى : الإنسان – النبأ – الغاشية – الانشراح – الفيل – الماعون .

[2] ابن كثير– تفسير القرآن العظيم– اختصار وتحقيق الشيخ الصابونى – ط٧– دار القرآن الكريم – بيروت – ١٩٨١–٣/٥٨٠

أي هذا النوع الذى شغله عما يراد به ويـراد لـه لعظم مقداره فـى نفس الأمـر الأنس بنفسه والإعجاب بظاهر حسه والنسيان لما بعد حلول رمسه [1] .

وأتى أسلوب الاستفهام بـ (هل) فى صدر سورة الغاشية ، وهى تتحـدث عن أمر هائل ، وحدث عظيم ، وهو الغاشية ، أى القيامة ، واشتقاق اللفظ يزيد المشهد هولا ، لأنه مشتق من الغشيان وهو التغطية ..

وقد ورد الاستفهام بـ (هل) فى مواضع أخرى من القرآن الكريم ، يحمل من بين أغراضه **التهويل أو الإنكار على فعل قبيح ، أو الإخبار بحدث عظيم** .

كمجئ (هل) فى مشهد من مشاهد التهويل فى قوله تعالى :

((هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ)) البقرة (٢١٠)

ومجئ (هل) فى معرض الإنكار على الكافرين وتوبيخهم ، كما فى قوله تعالى :

((هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ)) فاطر (٣)

فقد أخذ فى النكير على الكافرين والجاحدين ، وفيه إثبات للوحدانية وخصوصية الرازق .

وقد جاءت فى **عرض حدث هام غيبىّ** ، كما فى قوله تعالى :

((وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ)) ص (٢١)

---

[1] نظم الدرر ٢٥٩/٨

ولأهمية الحدث عبر عنه بالنبأ دون الخبر ، فوراء القصة هدف وغرض ، وهو المراد .

وقوله تعالى : ((وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)) طه (٩)

وقوله تعالى : ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)) النازعات (١٥)

بينما يكثر الاستفهام بـ (ألم) فى مقام التذكير بنعم الله وفضله ، كقوله تعالى :

((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)) فى صدر الانشراح

وقوله تعالى فى التذكير بنعم الله وفضله فى صدّ أصحاب الفيل عن البيت الحرام وهلاكهم : ((أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)) .

وقوله تعالى فى مقام ذكر النعم والفضل فى غير فواتح السور :

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً)) الحج (٦٣)

وقوله :

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى الأَرْضِ والفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)) الحج (٦٥)

وقوله :

((أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا)) النور (٤٣)

وغيرها كثير فى القرآن الكريم .. وقد تـأتى - أيضـا - فـى مقـام التوبيـخ والتبكيت والتعجب بـ (ألـم تـر) لاسـتحضار المشـهد وكأنـه رأى عيـن ، كقولـه تعالى :

((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ)) البقرة (٢٥٨)

*** الاستهلال بالجمل الخبرية**

تأتى بعض السور القرآنية حاملة فـى صدرهـا الجملـة الخبريـة ، وذلـك للتنويه على أمر عظيم ، وللتأكيد على أهمية ما يأتى بعده ، وقد تباين الاستفتاح بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية وبين الأغراض البلاغية المستقاة مـن وراء ذلك ، فقد يكون الغرض هو : تفخيم الحدث وتهويله ، كما فى قوله تعالى :

((أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)) النحل (١)

وأمر الله : أى عقاب الله للمشركين ، أو هو يـوم القيامـة - كمـا قيـل - ، وجاء الأسلوب الخبرى فى صدر هذه السورة الكريمة حاملا التهويل من ثلاثـة وجوه : الأول : التعبير عما سيقع فى المستقبل من عذاب أو قيامة بلفظ الماضى (أتى) تبنيها على تحقق وقوعه . الثانى : إضافة (أمـر) إلـى لفظ الجلالـة (الله) دون أن يقول مثلا : (أتى أمر ربكم) ، لأن المقام مقام وعيـد وتـهديد . الثـالث : إدخال الخوف والفزع فى نفوسهم عن طريق النهى (فلا تستعجلوه) ففيـه دلالـة على أعظم ما أخفى لهم من عذاب ليأتيهم بغتة .

ومن ذلك الغرض - أيضا - مجئ الجملة الخبرية الفعلية فى صدر سور الأنبياء ، حيث يقول تعالى :

((اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ))

فقد حملت الآية معنى الوعيد والتهويل ، لإنذار الناس بقرب الحساب والقيامة وقوله : (للناس) متعلقة بالفعل ، وتقديمها هي ومجرورها على الفاعل لإدخال الروعة [1] . ومثل ذلك ما جاء - أيضا - في صدر سورة القمر : ((**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ الْقَمَرُ**)) . وإسناد الفعل للفاعل المجازي (الساعة) ، (القمر) فيه تركيز على الحديث واستحضار له ، فيكون أبعث على المهابة والهول .

ومن الجمل الاسمية التي حملت نفس الغرض - التهويل - ما جاء في صدر سورة الحاقة : (**الْحَاقَّةُ ما الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**) . وقد تلاحقت مظاهر الهول في مطلع هذه السورة الكريمة فالبناء اللغوي والصوتي للكلمة يدخل الهول والفزع في النفوس ، لأنه يوم الثواب والعقاب . ثم الاستفهام التهويلي مرتين ، وإعادة كلمة (الحاقة) بما فيها من مد وتضعيف ثلاث مرات . "والأصل : الحاقة ما هي ، أي : أيّ شئ هي تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها ، فوضع الظاهر موضع المضمر ، لأنه أهول لها ، وقوله : (وما أدراك) ، وأي شئ أعلمك ما الحاقة يعني : أنك لا علم لك بكنهها ومدى عظمها" [2].

ومثلها ما جاء - أيضا - في صدر سورة القارعة (**الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**) فالافتتاح بلفظ (القارعة) افتتاح مهول وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به ، وإعادة لفظ (القارعة) إظهار في مقام الإضمار عدل عن أن يقال : القارعة ماهيه ، لما في لفظ القارعة من التهويل والترويع، وإعادة لفظ المبتدأ أغنى عن الضمير الرابط بين المبتدأ وجملة الخبر و (القارعة) وصف من القرع وهو ضرب جسم بآخر بشدة لها صوت و (ما) استفهامية ،

---

(1) الشوكاني - فتح القدير - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - ط٢ - دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٧ - ٥٤٣/٣

(2) الزمخشري - الكشاف - تحقيق - مصطفى حسين -ط٣- دار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧- ٥٩٨/٤

والاستفهام مستعمل فى التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب لأن هـول الشئ يستلزم تساؤل الناس عنه [١] .

* وقد يأتى الخبر فى صدر السـورة يحمـل عتابا علـى حادثـة معينـة ، وهو ما جاء فى صدر سورة (عبس) ، حيث يقول الله تعالى :

((عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَن جَاءَهُ الأَعْمَى))

وهو تعبير رسم صورة غضب النبى ﷺ وانفعاله النفسى من جـرّاء كـلام ابن أم مكتوم - ﷺ - معه . "وافتتاح هذه السورة بفعليـن متحمليـن لضمـير لا معاد له فى الكلام تشويق لما سيورد بعدهما ، والفعـلان يشـعران بـأن المحكـى حادث عظيم" [٢]

* وقد يأتى الخبر فى صدر السورة يحمـل توبيخـا علـى فعـل أو سـلوك معين ، كقوله تعالى فى صدر سـورة التكـاثر : ((أَلْـهَاكُمُ التَّكَـاثُرُ . حَتَّـى زُرْتُـمُ الْمَقَابِرَ)) .

التنافس والتفاخر بالكثرة شغلتهم عن القرآن والتدبر فى الأحوال ، وهذا الأسلوب توبيخ على هذا الفعل ، وقد بلـغ هـذا التوبيـخ مبلغـه بـالزجر والـردع بقوله : (كلا) وتكراره ، مع تكرار التهديد والوعيد (سوف تعلمون) فقـال جـل شأنه : ((كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون)) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٠٩ ، ٥١٠

(٢) نفسه ١٠٣/٣٠

* وقد تأتى الجملـة الخبريـة فـى صـدر السـورة **تحمـل غـرض التفخيـم والتعظيم** ، وقد بلغ التعظيم مبلغه إذا يقول سبحانه :

((الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الإنسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ))

(الرحمن) اسم مشتق من الرحمة للمبالغة ، وهو أبلغ من (رحيم) ، وقد اختصت البداية بهذا الاسم دون غيره من أسماء الله الحسنى ، لمناسبة المقام والحديث بعده ، فهو الذى أنزل القرآن رحمة للعالمين ، وهو ـ سبحانه الرحمن الرحيم بالإنسان .. وقال أبو على الفاسى[1] : الرحمن : اسم عام فى جميع أنواع الرحمة ، يختص به الله تعالى ، والرحيم : إنمـا هـو فـى جهـة المؤمنيـن ، قـال تعالى : **((وكان بالمؤمنين رحيما))** . الأحزاب (٤٣)

* ومن الخبر التعظيمى فى صدر سورة القرآن ، ما جاء لتعظيم القرآن الكريم ، وذلك فى سورة النور : **((سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ))** .

فجاء التعظيم هنا لسورة النور بصفة خاصة ومحددة لما اشتملت عليه من أحداث عظيمة وأحكام اجتماعية وتربوية جلية .

وكقوله تعالى فى تعظيم القرآن بصفة عامة فى صدر سورة الزمر :

((تَنزِيلُ الكتابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ))

---

[1] فتح القدير ٨١/١

وكقوله تعالى فى تعظيم القرآن - أيضا - بصفة عامة فى صدر سورة (القدر) ،

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ))

ربما يكون التعبير بـ (أنزلناه) إشارة وتمييزا للقرآن الكريم ساعة نزوله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر كما روى فى ذلك ..

وقد جاء تعظيم القرآن فى صدر السورة من ثلاثة أوجه [1] : الأول : أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره . والثانى : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه . والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذى أنزل فيه .

*** فى الفعل ومتعلقاته**

قد يأتى الأسلوب حاملا الفعل بزمنه المعتاد ، لكن يراد به معنى آخر ليكون أمكن فى النفس باكتشاف خفايا المعنى من حيث لا يتوقع الإنسان ، وهو ما يعرف فى البلاغة بالالتفات

كقوله تعالى : ((إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ)) الأنفال (٩)

فعبر عن الماضى بالمستقبل (تستغيثون) بدلا من (استغثتم) مثلا ثم الانتقال إلى الماضى (فاستجاب) ، ولعل النكتة البلاغية فى ذلك ، أن الاستغاثة

---

[1] الكشاف ٧٨٠/٤

من العبد لربه دائمة لا تنقطع ، فعبر عنها بالاستمرار ، أما الاستجابة فهى قريبة متحققة من الله تعالى ، فعبر عنها بالماضى ، ليكون ذلك أدخل للطمأنينة فى النفس وأمكن للثقة فى الدعاء والاستغاثة .

وكذلك - أيضا - جاء التعبير بالمستقبل عن الماضى فى قوله تعالى :

((إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ . إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ ..)) الأنفال (١١-١٢)

فالنعاس والماء والتطهير وذهاب الرجز والربط على القلوب والتثبيت والوحى إلى الملائكة ، كل هذه الأمور قد حدثت ووقعت بالفعل ، ولكن التعبير عنها قد جاء بالاستمرار والاستقبال ، فهذه الأمور دائمة للمؤمنين ، وفى التعبير عنها بالمستقبل استحضار لنعم الله تعالى وتذكير دائم للمؤمنين ، فيكون أدعى على بث الثقة بنصر الله فى النفوس .

وقد تأتى الجملة الفعلية **منفية** والمراد **النهى** ، وقد جاء ذلك فى مواضع عديدة من القرآن الكريم ، "وقد كان العرب إذا أرادوا المبالغة فى ترك الشئ عدلوا فيه عن النهى إلى النفى المحض العام، وصار ألزم فى المنع، إذ صار من الأشياء التى تقع أصلا"[1] ومن ذلك قوله تعالى :

((وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ . وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ)) البقرة (٨٣-٨٤)

---

[1] أبو حيان - البحر المحيط - ط٢ - دار الفكر ١٩٨٣ - ١٣٠/١

(لا تعبدون) أى : لاتعبدوا إلا الله ، و (لا تسفكون) أى : لا تسفكوا ، (ولا تخرجون أنفسكم) أى : لا تُخرجوا أنفسكم ، وهو "التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وقيمته أنه سبحانه يتجه إليهم بالخطاب لإعلامهم بالتكليفات ، وهو أبلغ من أن يكون الكلام بالغيبة" [1].
أما قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ..)) الأعراف (٥٧)

وقوله تعالى :

((اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ..)) الروم (٤٨)

فقد جاء الفعل (يرسل) بلفظ المستقبل ، بينما جاء الفعل بلفظ الماضى فى قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ..)) الفرقان (٤٨)

وقوله تعالى أيضا :

((واللهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ..)) فاطر (٩)

جاء التعبير بالضمير المفيد للاختصاص (هو) فى سياق تقديم البشارة (بشرا) على شبه الجملة (بين يدى رحمته) وذلك مع الاستقبال (يرسل) ومع

---

[1] د . فتح الله سليمان – الفعل فى سورة البقرة – مكتبة الآداب – القاهرة – ١٩٩٧ – ص٨٣

الماضى (أرسل) ، وجاء بلفظ الجلالة (الله) فى سياق إثارة السحاب (فتثير سحابا) مع المستقبل (يرسل) ومع الماض (أرسل)

وقد جاء التعبير بلفظ المستقبل فى سورتى الأعراف والروم ، "لأن ما قبله فى هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله : (وادعوه خوفا وطمعا) وهما يكونان فى المستقبل لا غير فكان (يرسل) بلفظ المستقبل أشبه بما قبله" [1]

أما فى سورة الفرقان ، فلما تقدم ذلك أفعال ماضية وهو قوله تعالى : (مدّ الظل) و(جعله) (ثم قبضناه) و (جعل لكم الليل) و (جعل لكم النهار) ناسب ذلك : (وهو الذى أرسل الرياح) ، وأما آية فاطر : فإنه تقدم قوله تعالى : (اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) وهو المطر ، وإنما يذكر بشكر النعم الماضية على زمن الشكر ، فناسب (أرسل) ماضيا.[2]

وقد يقع التبادل فى مواضع الكلمات بغية هدف بلاغى معين يثبت فى النفوس ، فيتمكن المعنى بصورته الحية فى الأذهان ، وقد جاء ذلك فى مواضع كثيرة فى القرآن الكريم ، فجاء الخبر مقدما على المبتدأ فى تركيب بلاغى دقيق ، كاختصاص الملك بالله ـ سبحانه ـ وقصره عليه وحده ، كما فى قوله تعالى :

((لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ..)) الشورى (٤٩)

أو قصر العبودية على الله وحده ، واختصاصه بالاستعانة كما فى تقديم المتعلقات أو معمولات الفعل ، كما فى قوله تعالى : ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) الفاتحة (٤)

---

[1] الكرمانى – أسرار التكرار فى القرآن – تحقيق ودراسة عبد القادر أحمد عطا –ط٢– دار الاعتصام – القاهرة – ١٩٧٦– ص٨١

[2] ابن جماعة – كشف المعانى فى المتشابه من المثانى – تحقيق د. عبد الجواد خلف –ط١– دار الوفاء – المنصورة –١٩٩٠ –ص ١٧٧

أو كما فى قوله تعالى :

((وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)) الأعراف (١٩٧)

فجاء تقديم (أنفسهم) مع النفى لاستحضار هذا العجز عن نصرة النفس ، فكيف بنصره غيرهم ؟! ، وكقوله تعالى :

((خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ)) القمر (٧)

فجاء تقديم الحال (خشعا) بصيغته وبنائه اللغوى ليرسم صورة حية ماثلة للعين لهؤلاء الفئة وهم بهذه الحالة النفسية والذلة المرسومة فى أبصارهم ، فكان التقديم للاهتمام بإبراز هذا المشهد ..

أما إذا صاحب الاستفهام التقديم ، فإن ذلك يكون لغرض بلاغى دقيق ، وهو سوق الإنكار والتوبيخ مع غرض التقديم ، كقوله تعالى :

((قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا)) الأنعام (١٤)

وقوله عز وجل :

((قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ)) الأنعام (٤٠)

ففى هذا التقديم مزية بلاغية لا نجدها فى غيره ، " وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأيكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شئ

من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله وليا ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك" [1].

وقد يأتى التقديم والتأخير فى سياق آية واحدة ، لغرض بلاغى اقتضاه الحال ، كما فى قوله تعالى :

((لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)) البقرة (١٤٣)

قال الزمخشرى : "فإن قلت : لم أخرت صلة الشهادة أولا وقدّمت آخرا ، قلت : لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الاسم . وفى الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم [2].

بينما جاء التقديم والتأخير فى آيتين متباعدتين ، كما فى قوله تعالى :

((وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) الروم (٢٧)

وقوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)) مريم (٨-٩)

فقال جل شأنه : (وهو أهون عليه) فى سورة الروم بتأخير (عليه) - وقال : (هو علىّ هين) فى سورة مريم بتقديم (علىّ) .

(١) عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز – تحقيق الشيخ محمود شاكر – الهيئة العامة المصرية للكتاب – القاهرة – ٢٠٠٠– ص١٢١

(٢) الكشاف ١/١٩٩

قال الزمخشرى : "هناك قصد الاختصاص ، وهو محزه فقيل (هو على هين) وإن كان مستصعبا عندكم أن يولد بين هم (شيخ فانى) - وعاقر ، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص . كيف والأمر مبنى على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء ، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى"[1].

ومن تباين السياقات فى التقديم والتأخير ، ما جاء من تقديم ضمير المخاطب وتأخيره في قوله تعالى :

((وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ . نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)) الأنعام (١٥١)

وقوله تعالى :

((وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ . نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم))

الإسراء (٣١)

فقال فى الأنعام (نرزقكم وإياهم) لأنه خطاب للفقراء ، أى : لا تقتلوهم من فقر بكم ، أما قوله : (نرزقهم وإياكم) فهو خطاب للأغنياء ، أى خشية إملاق - فقر - يتجدد لكم بسببهم .[2]

---

[1] نفسه ٤٧٦/٣

[2] كشف المعانى . ١٦٩

الفصل الثانـى

إعجاز الوصف

إذا كان الوصف معدودا من التوابع إلا أنه يقوم بأداء وظيفة حيوية لإبراز المعنى قويا وواضحا .. والوصف لا يأتى إلا بكلمة مناسبة يقتضيها السياق ، وهو حينئذ لا يعد ثانويا أو فضلة من فضلات الجملة ، وهذا يظهر جليا فى سياق القرآن حيث نجد الكلمة الواصفة قد تبوأت مكان الإعجاز فى مقامها ، فالوصف بالإحسان له موضع غير موضع الوصف بالإيمان أو التقوى أو العلم أو التعقل ، وكلها من مواضع الحمد والتعظيم ، والوصف بالنفاق له موضع مغاير للوصف بالكفر أو الضلال أو نحو ذلك ، وكلها من مواضع الذم وأغراض التحقير ، وكذلك الوصف بغرض البيان أو التوكيد والتخصيص ونحوه له مواضعه التى يحددها السياق ويبرزها المقام ، وهو ما نبيّنه فى هذه الوقفة بعد الاستعانة بالله ..

المدح والتعظيم

تختلف الصفة باختلاف الموصوف واختلاف المقام الذى ذكرت فيه ، فقد جاء الوصف للفظ الجلالة فى مواضع عديدة يحمل دلالات مختلفة ، فيقول تعالى :

((يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰوَاتِ ، وبَرَزُوا للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ)) ابراهيم (٤٨)

فجاء الوصف بالوحدانية والقهر ، وهو مناسب للمقام ، حيث تتحدث الآية عن يوم القيامة وهولها وتبديل الأرض والسموات ، وبروز الخلق لله ، والوحدانية هنا وصف جليل أبلغ من غيره ، فيه دلالة على تفرد الخالق بملكه وتحكمه فيه دون منازع ، وجاء وصف **(القهار)** لإبراز هول الموقف وبيان قدرة الله تعالى على تغيير كل شئ وإيجاد كل شئ .

وقد جاء نفس الوصف فى نفس المشهد والموقف فى آية أخرى ، حيث يقول تعالى :

((يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ . لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَئٌ ، لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْم . لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّار)) غافر (١٦) .

وفى موضع آخر جاء وصف مغاير اقتضاه السياق ، يقول تعالى :

((تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم)) الزمر (١)

فالمقام هنا يتحدث عن تنزيل الكتاب - القرآن الكريم ، والمناسب لذلك : العزة والحكمة التي اقتضت التنزيل وما اشتمل عليه من حكم وإحكام ، والإشارة إلى أثره البالغ فى معالجة حياة البشر فى كافة نواحيها ، وهو العزيز ، أى القوى الذى لا يُغلب ، فلا يُغلب كتابه ولا يضاهَى ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد جاء فى غير موضع وصف لفظ الجلالة فى سياق الحديث عن تنزيل الكتاب بصفات أخرى ، كقوله تعالى :

((حم . تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيم . غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاإلهَ إلاَّ هُوَ ، إلَيْهِ المَصِيرُ)) غافر (١-٣)

فجمع هنا العلم إلى العزة ، وبالغ فقال العليم ، وهذه الصفة تحمل سببا من أسباب تنزيل الكتاب ، فهو - سبحانه - يعلم أحوال خلقه ، ويعلم ما يصلحهم ، وكل ذلك فى الكتاب المنزل .. وأتى بصفات أخرى : المغفرة والتوبة وشدة العقاب وطول التفضل ، وموقع هذه الصفات فى سياق الحديث عن الكتاب المنزل ، فيه إشارة إلى أثر التمسك بالتنزيل والعمل به ، فيشمل الترغيب (المغفرة والتوبة والتفضل) والترهيب (شديد العقاب) وقوله : (غافر

الذنب وقابل التوب شديد العقاب) هى كالنعت للمعرفة إذا اعتبرنا إضافتها لفظية ، "ولكنه يجوز أن تجعل إضافتها معنوية كما قال سيبويه : إن كل ما إضافته غير محضة ـ يجوز أن تجعل محضة ، وتوصف به المعارف إلا الصفة المشبهة ، وقال الزجاج : إن هذه الصفات الثلاث مخفوضة على البدل . وروى عنه أنه جعل غافر وقابل مخفوضين على الوصف وشديد مخفوض على البدل" [(١)].

ويقول تعالى واصفا نفسه ـ سبحانه بالرحمة :

((حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)) فصلت (١-٢)

(الرحمن الرحيم) اسمان مشتقان من الرحمة على طريقة المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم . والرحمن من الصفات الغالبة لم يستعمل فى غير الله ـ عز وجل [(٢)].

وقد يجمع بين الحكمة والعلم دون لفظ الجلالة فى الصفة والموصوف فى سياق الحديث عن القرآن الكريم ، كقوله تعالى :

((وإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) النمل (٦)

وقد يأتى وصف لفظ الجلالة بكلمة رب العالمين ، وقد جاءت فى الكثير من لمواضع كقوله تعالى : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) الفاتحة

---

(١) فتح القدير ٦٣١/٤

(٢) نفسه ٨٠/١-٨١

والرب مصدر رب يرب ، ثم جعل صفة كعدل وخصم ، وأصله راب وجره على الصفة أو البدل ، وقرئ بالنصب على إضمار أعنى ، وقيل على النداء ، وقرئ بالرفع على إضمار هو [1].

وقد جاء هذا الوصف برب العالمين مسبوقا وملحوقا بالرحمة فى قوله : (الرحمن الرحيم) وهذا مناسب لافتتاح القرآن الكريم وبداية المصحف .. وفى ذلك السياق جمع بين لفظ الجلالة ولفظ الربوبية ، ليجمع بين التوحيد وترسيخ العقيدة ، وبين التربية والرعاية والعناية ..

وقال فى موضع آخر :

((فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، والْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) الأنعام (٤٥)

فجاء الوصف برب العالمين تذكيرا بالنعمة التى وقعت باستئصال شأفة الظالمين ، ففى ذلك لطف من الله ورعاية بعباده وعناية بهم ، ولذلك صدرت الجملة بالحمد ، وهو ما لم يأت فى مواضع أخرى ذكر فيها (رب العالمين) ، كقوله تعالى :

((وأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) النمل (٤٤)

فالمقام مقام استسلام وإذعان لله ، ففيه إصلاح العقيدة ولزوم التوحيد فجاء لفظ الجلالة (لله) ، وفيه إظهار الربوبية والتربية والتهذيب فجاء ذكر الرب وهذه بلاغة أسلوبية فيها إيثار على : (وأسلمت مع سليمان لله) أو (وأسلمت مع سليمان لرب العالمين) .

---

[1] العكبرى – التبيان فى إعراب القرآن –ط١– المكتبة التوفيقية – القاهرة – ١٩٧٩–١/٥

وقد يأتى الوصف للفظ الجلالة بـ (الملك الحق) ، وذلك فى موضعين من القرآن الكريم ، **الأول** فى قوله تعالى :

((وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ ..)) طه (١١٣-١١٤)

والموضع **الثانى** فى قوله تعالى :

((أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ)) المؤمنون (١١٥-١١٦)

والوصف بالملك الحق يناسب مقام الحديث عن اليوم الحق ، يوم القيامة وما فيه من وعيد نص عليه القرآن ، فهذا كله حق ، ولا يستطيعه إلا أحكم ملكه وملك زمام خلقه وكونه ، ولذلك جاء الوصف بالملك لأنه لا يملك هذا إلا الله ، وهو الموصوف أيضا بالحق .

وفى موضع آخر وصف (الله) بالملك القدوس العزيز الحكيم ، وذلك فى قوله تعالى :

((يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) الجمعة (١-٢)

(المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ). قرأ الجمهور بالجر في هذه الصفات على أنها نعت لـ (الله) ، وقيل : على البدل ، والأول أولى ، و (الملك القدوس) أي الطاهر من كل عيب المنزه عن كل نقص"[1].

فناسب الوصف في (الملك القدوس) قوله في صدر الآية الكريمة (يسبح) وفيها أيضا التنزيه لله عن الشريك والنقص ، فأحيط لفظ الجلالة (لله) بهذا السابق ، وذاك اللاحق ، وجاء وصف العزيز ليزيل عن الأذهان حاجة الله في هذا التنزيه من أحد من خلقه ، فهو عزيز بذاته وصفاته ، وهو حكيم حكمة مطلقة .. هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى ، كانت هذا الصفات المجيدة تمهيدا وتناسبا مع ما يأتي بعدها ، ألا وهي مهمة الرسول والكتاب المنزّل معه .. ولذلك جاءت ثلاث جمل متتابعة في موقع الصفة للرسول ، وهي (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) ، وهذه الحكمة مما اشتمل عليه الكتاب المنزل ، وقد ناسب ذلك وصف الله تعالى بالحكيم سابقا .

وربما جاء وصف الله - تعالى - باسم الموصول (الذي) ، وذلك في مواضع عديدة ، كقوله تعالى :

((إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ والأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ..)) الأعراف (٥٤)

وقوله تعالى :

((إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ والأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ..)) يونس (٣)

---

[1] فتح القدير ٥/٢٧٥ ، ٢٩٩

وقوله تعالى :

((اللهُ الذى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ..)) الرعد (٢)

وقوله تعالى :

((اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ وأنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِن الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُم ، وَسَخَّرَ لكُمَ الفُلْكَ ..)) ابراهيم (٣٢)

وبالنظر إلى اسم الموصوف (الذى) هنا ، نجده قد جاء فى مقام تعظيم الخالق فى مجالات تعجيزية وفيها بيان قدره الله المطلقة ، فتلين القلوب للإيمان به .. فكأنه قال : الله الذى خلق ورفع وأخرج الثمر وجعل الشمس والقمر ... فهل يستطيع أحد أن يفعل ذلك ، والله تعالى أعلم .

وقد جاء الوصف برب العالمين فى موضع آخر فى سياق (تبارك الله) ، يقول تعالى :

((اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا والسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذلِكُم اللهُ رَبُّكُمْ ، فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِين)) غافر (٦٤)

وفى موضع آخر فى سياق (تبارك) أيضا قال جل شأنه :

((فتبارك الله أحسن الخالقين)) المؤمنون (١٤)

ففى هذا الموضع من سورة المؤمنون توالت الآيات تتحدث عن خلق الله للإنسان ومراحل خلقه وتطوره من سلالة من طين ثم نطفة ثم من علقة ، فناسب ذلك قوله : (أحسن الخالقين) .. يقول تعالى :

((وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ . ثم خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)) المؤمنون (١٢-١٤)

أما فى سورة غافر ، فالآية تتحدث عن الربوبية من فضل الرعاية والعناية والنعم من قرار الأرض وبناء السماء وحسن التصوير والرزق من الطيبات ، فناسب ذلك أن يقول : (رب العالمين) ..

وفى هذه السورة الكريمة - غافر - ختمت ثلاث آيات على التوالى بقوله : (رب العالمين) **وليس له فى القرآن نظير** ، هذه الآية المذكورة سابقا رقم (٦٤) ، والآيتان بعدها فى قوله تعالى :

((هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جَاءَنِىَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَبِّى وأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)) غافر (٦٥-٦٦)

وسبب التكرار - والله أعلم - هو : تأكيد ربوبية الله للعالمين على أسماع الكفار جميعا ، لا سيما أهل التثليث ثلاث مرات [1].

---

(1) أسرار التكرار فى القرآن ص١٨٧

وصف القرآن الكريم

قد تحمل الآيات ذكر القرآن بلفظ الكتاب أو بلفظ القرآن ، ومن ثم يتغير الوصف تبعا لتغير الكلمة .. وإذا جاءت كلمة الكتاب موصوفة ، فإن أكثر الوصف يكون بكلمة (مبين) ، كما فى قوله تعالى :

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) الشعراء (٢)

((طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ)) النمل (١)

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) القصص (٢)

وجاء الجمع بين الكتاب والقرآن فى آية واحدة ، مع وصف القرآن بالمبين ، وذلك فى قوله تعالى :

((الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ)) الحجر (١)

وقوله تعالى : **((إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ))** يس (٦٩)

ولعل وصف الكتاب والقرآن بالمبين فى هذه المواضع للدلالة على بيانه ووضوحه الشامل لجميع آياته وسوره ، ولذلك جاء فى (الشعراء) فى الآية الثالثة : **(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)** . وفى هذا توبيخ للكافرين : إذ كيف يكفرون به مع وضوحه وبيانه ..

وفى النمل جاء فى الآية الثانية ذكر الهداية بعد البيان والوضوح : **(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)** وفى القصص جاء فى الآية الثالثة وما تبعها ذكر نبأ موسى وفرعون : **(نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** .

أى : فمن دلائل بيانه وصدقه أنه يحكى أحداث الغيب الموغل فى القدم ، ومنه جحود فرعون على الرغم من سطوع الحق ، وفى آية يس جاء ذكر الشعراء قبلها ، فقال : **(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)** فجاء وصف القرآن بالمبين ، ليقول لهم : إن هذا القرآن بين واضح بأنه ليس بشعر ، وأنتم أعلم الناس بالشعر وفنونه .. وفى موضع آخر جاء وصف الكتاب بالمستبين لما فى قوله تعالى :

((وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ)) الصافات (١١٧)

وليس المراد بالكتاب هنا القرآن ، وإنما التوراه ، والضمير فى (وآتيناهما) يعود على موسى وهارون عليهما السلام .

وجاء وصف الكتاب بالحكيم فى قوله تعالى :

((الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)) يونس (١-٢)

ووصف الكتاب بالحكيم هنا ، لإرشاد العقول الضالة إلى حكمة اختيار النبى ﷺ ، فقد تعجبوا من أن يكون الرسول بشرا ، فلم يكن كلامهم حكيما ، ولا تفكيرهم متزنا ، وكأنه قال : كونوا حكماء وعقلاء فى تفكيرهم ، كيف تطلبون أن يكون الرسول ملك وأنتم بشر ؟!

وجاء وصف الكتاب بالحكيم فى موضع آخر ، فى قوله تعالى :

((الم . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ)) لقمان (١-٣)

ولعل السبب فى ذلك - والله أعلم - أن هذه الآية الكريمة والوصف الحكيم للقرآن ، قد جاء بين خاتمة سورة الروم ، وفيها بيان عن تكذيب الكافرين للقرآن وبين بداية سورة لقمان وفيها بيان أثر القرآن من هدى ورحمة للمحسنين .. كذلك - أيضا - كان آخر ما ختمت به سورة الروم قوله تعالى :

((وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ))

فجاء وصف الكتاب بالحكيم فى بداية سورة لقمان أبلغ ما يكون الوصف والتناسب مع خاتمة سورة الروم ، لأن المعنى : إن هؤلاء الكافرين "قد ضعف إيمانهم وقل يقينهم فخفت لذلك أحلامهم وقل صبرهم ، وهذا يدل على أن كل مؤمن موقن رزين العقل يسهل عليه الصبر ، وكل ضعيف اليقين ضعيف العقل خفيفه فالعكس ، فالأول بمنزلة اللب والآخر بمنزلة القشور والله المستعان"[1]
وقد أتى وصف القرآن بالحكيم أيضا فى قوله :

((يسٓ . والقُرْآنِ الحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ)) يس (١-٣)

ولعل صفة الحكمة قد جاءت هنا لتناسب سورة فاطر قبلها ، حيث يقول تعالى :

((أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا . وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى. فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)) فاطر (٤٤-٤٥)

---

(١) السعدى - تفسير (تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان) - تقديم الشيخ عبد الله بن عقيل والشيخ محمد العثيمين - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٢ - ص٦,٧

فالآيتان تحملان الحث على التعقل والحكمة فى النظر إلى عاقبة السابقين ، وتثبت الآية الأخيرة حكمة الله تعالى - فى تصريف شئون خلقه ، فهو - جل شأنه - لا يعاجلهم بالمؤاخذه ، وإلا فنيت الخلائق ، ولكن يؤخرهم إلى يوم البعث .

وقد تأتى كلمة (القرآن) فى مواضع عديدة من الآيات الكريمة ، ولكن بأوصاف أخرى غير أوصاف الكتاب السابقين ، كقوله تعالى :

((وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)) الحجر (٨٧)

جاء وصف القرآن هنا بالعظيم للفت الانتباه إلى ما اشتمل عليه القرآن من صفات الكمال والامتناع عن الشبيه أو التحريف ، وهو أنسب وصف فى هذا المقام لقوله فى صدر الآية : (ولقدآتيناك) ، ولأنه يتعرض بالكلام للذين أقسموا على بطلانه ، وجعلوه عضين ، أى : أصنافا ، منهم من يقول سحر ، ومنهم من يقول كهانة ...

بينما جاء وصف القرآن فى موضع آخر بوصف مغاير لما سبق ، كما فى قوله تعالى :

((صٓ ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ)) ص (١-٣)

فوصف القرآن هنا بـ (ذى الذكر) أى التذكير للعظة والاعتبار وهذا يناسب حال الكافرين ، فقد استكبروا وامتنعوا ، فذكرهم القرآن بحال الأمم السابقة . (كم أهلكنا ...) ، فلما وقع عليهم الهلاك استغاثوا ولكن بعد فوات الأوان (ولات حين مناص) .

وقد جاء وصف القرآن **بالمجيد** فى قوله تعالى :

((ق ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ . بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ . أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ، ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ . قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ، وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)) ق (١-٤)

وقوله تعالى :

((بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيبٍ . واللهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ . بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)) البروج (١٩-٢٠)

فوصف القرآن **بالمجيد** يعنى أنه لا يناله تحريف ولا تبديل ، وهو مصون عن التغير ، وفى هذا الوصف تناسب مع قوله تعالى بعد ذلك : **(وعندنا كتاب حفيظ)** (ق٤) وقوله : **(فى لوح محفوظ)** (البروج ٢٢) ، فوصف - أيضا - الكتاب وهو اللوح بأنه حفيظ ، ووصف اللوح بأنه محفوظ ، فلا يتغير ولا يتبدل .. وقال الفخر الرازى : "هذا القرآن مجيد مصون عن التغير والتبدل ، فلما حكم فيه بسعادة قوم وشقاوة قوم ، وبتأذى قوم من قوم ، امتنع تغيره وتبدله ، فوجب الرضا به ، ولا شك أن هذا من أعظم موجبات التسلية"[1]

وقد جمعت آية الواقعة بين القرآن والكتاب فى قوله تعالى :

((فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وإِنَّه لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّه لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ)) الواقعة (٧٥-٧٩)

القسم بمواقع النجوم .. والمقسم عليه القرآن الكريم ، والنجوم بمواقعها العالية التى لا تدرك ، تلفت الانتباه إلى علو قدر القرآن وعظمته التى لا يدرك كنهها .. وهذا العلو والقدر الرفيع يشير إلى علوه ورفعته على جميع الكتب ،

(1) التفسير الكبير ١١٦/١١

ويشير إلى علو ما فيه من أخلاق ، ويشير إلـى علـو منـزلة صـاحب القـرآن ، "وحكى الواحدى عن أهل المعانى : أن وصف القرآن بالكريم ، لأن من شأنه أن يعطى الخير الكثير بالدلائل التى تؤدّى إلى الحق فى الدين . قال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والقرآن يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة . **(فى كتاب مكنون)** أى مستور مصون ، وقيل : محفوظ عن الباطل ، **وهو اللوح المحفوظ**"(١)

أما وصف القرآن بالعربى ، فقد جاء فى مواضع عديدة ، كقوله تعالى :

((إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)) يوسف (٢)

((كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) فصلت (٣)

هذا الوصف مدح للعربية لأنها شرفت بنزول القرآن الكريم بها ، وليس مدح للقرآن بأنه عربى ، وهو وصف - أيضا - يفيد مزيدا من البيان والتوكيد . والله أعلم .

وصف الجنة

جاء الوصف فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة بهدف مدح الموصوف وتفخيمه أو لإظهار مزية عظيمة غالبة فيه ، وقد جاء وصف الجنة فى الكثير من الآيات القرآنية لنفس الغرض ..

على أن كلمة (الجنة) بصيغة المفرد قد جاءت موصوفة فى اثنى عشر موضعا من جملة خمسة وستين موضعا ، فى حين أن كلمة (الجنات) بصيغة

(١) فتح القدير ٢١٣/٥

الجمع قد جاءت موصوفة فى سبعة وثلاثين موضعا من جملة تسعة وستين موضعا ..

ولعل السبب فى ذلك أن ذكر الجنة بصيغة الإفراد لإرادة عمومها ومطلقها وإجمالها وهى كثيرا ما تذكر مفردة فى مقام المقابلة بينها وبين النار ..

وقد جاءت كلمة (الجنة) موصوفة فى أربعة مواضع ويراد بها الحديقة أو البستان ، وليس جنة الآخرة ، وهذه المواضع هى :

قوله تعالى : ((**وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**)) البقرة (٢٦٥-٢٦٦)

فالجنة فى الموضعين المذكورين هما من قبيل المثل الذى يضربه الله تعالى - للمنفق الذى يبتغى مرضات الله .. (جنة بربوة) ، والمنفق الذى يمن ويؤذى بصدقته .. ومن بلاغة وصف الجنة الأولى أنها جاءت بشبه الجملة (بربوة) وهى المكان المرتفع ، لتكون أنقى للهواء وأغزر للماء ، وفى ذلك تخييل حسى يرتفع بالمنفق إلى مكان عال يتمتع فيه بطيب الحياة ، ثم يجد العيش الرغد (أكلها ضعفين) .. أما الجنة الأخرى ، فهى مَثل ضربه الله لذلك الذى أصابته الحسرة والفجيعة لاحتراق جنته بعد ازدهارها وينعها فى الوقت الذى كبرت فيه سنه وضعفت ذريته .. وقد توالت الكلمات فى رسم الصورة بتدرج يوحى بمدى تلك الفجيعة .. الكِبَر - ذرية ضعفاء ، ثم يعلو إيقاع الكلمة

وتشتد الوطأة بقوله : (إعصار) ثم (نار) ثم (فاحترقت) ، وهذا كله بعد أن كـان : النخيل والأعناب والأنهار الجارية والثمار الشاملة لكافة الأنواع .

ووصف جنة الدنيا بالنخيل والأعناب هو وصف جار فى القرآن الكريـم حتى فى مجئ كلمـة (الجنـات) مجموعـة وذلـك لمعايشـة العـرب لـهذه الألـوان ومعرفتهم بها وأهميتها فى حياتهم كقوله تعالى :

((وَمِنَ النَّخْـلِ مِـن طَلْعِـهَا قِنْـوَانٌ دَانِيَـةٌ وَجَنَّـاتٍ مِّنْ أَعْنَـابٍ والزَّيْتُـونَ والرُّمَّانَ ...))

الأنعام (٩٩)

وقوله تعالى : **((وَهُوَ الَّـذِى أَنشَـأَ جَنَّـاتٍ مَّعْرُوشَـاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَـاتٍ والنَّخْلَ والزرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ ...))** الأنعام (١٤١)

وقوله تعالى :
((وفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ ..))
الرعد (٤)

وقوله تعالى : **((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ))** المؤمنون (١٩)

وقوله تعالى :
((وَجَعَلْنَا فيها جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ))
يس (٣٤)

وقد جاء الموضعان الآخران لكلمة الجنة التى يراد بها البستان فى قولـه تعالى :

((وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا)) الإسراء (٩٠-٩١)

(جنة من نخيل وعنب) ، فالوصف البارز فى ذكر الجنة هنا ، أنها تشتمل على النخيل والعنب ، وقد ذكر العنب هنا بجمع القلة لمناسبة مقام الإفراد (لك) - (جنة) ، بينما تذكر فى مقام الكثرة (جنات) بجمع الكثرة كالآية السابقة فى سورة (يس) وغيرها ..

ولم يأت لفظ (العنب) بجمع القلة إلا فى موضعين : هذا الذى ورد فى سورة الإسراء ، والموضع الآخر فى سورة (عبس) فى قوله تعالى :

((فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا)) عبس (٢٨)

ولعل تأويل ذلك أن المراد ذكر نعم الله تعالى بجنسها العام ، فقال (حبا) ولم يقل مثلا (حبوبا) ، كذلك العنب والقضب والزيتون والنخل ، وكقوله تعالى:

((وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ)) الأنعام (١٤١)

فأراد جنس هذه الأنواع ، بينما إذا ذكر النخيل دون النخل ، فإن ذلك يكون لتحريك النظر والتأمل إلى ثمر النخيل . والله تعالى أعلم .

وجاءت كلمة الجنة موصوفة ويراد بها البستان فى قوله تعالى :

((أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ..)) الفرقان (٨)

فالوصف للجنة بقوله : **(يأكل منها)** فيه رسم لصورة الجنة التى أرادها المجادلون المكذبون للنبى ﷺ ، وهى أن تشمل على كافة أنواع الثمار ، فلا يلجأ إلى المشى فى الأسواق طلبا للرزق .

*** وصف الجنة باسم الموصول**

جاء وصف الجنة في القرآن الكريم بلفظ (التى) سواء فى إفرادها أو جمعها ، وقد أتى هذا الوصف مرتبطا بالفعل (وعد) ، كقوله تعالى :

((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)) الرعد (٣٥)

وقوله تعالى :

((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ..)) محمد ﷺ (١٥)

فجاءت كلمة الجنة على الإفراد والوصف بـ (التى) ، وفى ذلك استحضار لما ذكر من مشاهدها ، وبناء الفعل (وعد) لنائبه (المتقون) لينصرف الذهن لهذا الخُلق ، وهو التقوى .. وقد جاء الوصف (بالتى) للجنات مجموعة ، لكن بصيغة البناء للمعلوم ، وذلك فى قوله تعالى

((جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ..)) مريم (٦١)

فكأن فى التعبير بكلمة (بالغيب) استعاضة عن بناء الفعل بصيغة المجهول ، وجاء اسم الموصول (التى) رابطا معنويا بين جنات عدن ووعد الرحمن .. وجاء التعبير بكلمة : (الرحمن) وإلحاق (عباده) بها لشمول الرحمة

لهؤلاء العباد ، وقد شرفهم بإضافتهم إليه ، فكان لهم رحمة خاصة مبالغا فيها ، ولذلك آثر هذا التعبير على غيره ..

وجاء اسم الموصوف (التى) رابطا بين جنات عدن وبين والوعد بصيغة المعلوم ، فى سياق الدعاء ، وذلك فى قوله تعالى :

((رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)) غافر (٨)

وقد يأتى الوصف للجنة ليرسم بُعد مكانتها وعلو منزلتها ، فيرتفع بالنفس وقيمتها حتى تعلو همتها ، كقوله تعالى :

((فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)) الحاقة (٢٢)

((وُجُوهٌ يومَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ)) الغاشية (١٠)

فجاء الربط فى الآيتين بين الرضا والجنة العالية ، فهذا سبيل إلى ذاك ، والتعبير بالمجاز فى قوله : (عيشة راضية) والمقصود مرضية ، مبالغة قوية لإظهار الرضا وتمكنه من النفوس ، فظهر شخصا فى العيش ، لينصبّ الرضا عليه فكيف بمن فيه .

وقد يأتى وصف الجنة ليرسم مشهد التفاف الأشجار وأغصانها وتراكم ثمارها ، كما فى قوله تعالى :

((وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا . وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا . وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا . لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا . وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا)) النبأ (١٢-١٦)

فتدرج المشهد من ذكر السبع الشداد - السموات – ثم وجه النظر إلى ما فيها من سراج - أى شمس - تتوهج بالنور والحرارة ثم ما يجرى تحتها من المعصرات وهى "السحائب ذوات الأعاصير ، فإن السحائب إذا عصرتها لابد وأن ينزل المطر منها .. و (من) ههنا بمعنى الباء والتقدير ، وأنزلنا بالمعصرات أى الرياح المثيرة للسحاب"[1].

ثم الماء وهو ينصبّ صبًا – ثجاجا – وكل ما ذكر هو من عوامل إخراج الحب والنبات والجنات الملتفة ..

فالمشهد قد اشتمل على **الأصوات كما فى** صوت المعصرات وثج الماء – **واشتمل على الثبات والحركة** .. فالثبات **يتمثل فى** اشتداد السماوات السبع ، والحركة تبدو فى توهج الشمس بنورها الممتد وحركة المعصرات وثج الماء .. **واشتمل المشهد - أيضا - على الألوان** المتمثلة فى الحب والنبات والجنات ..

وكل هذه الأجزاء تتراص وتترابط فى تتابع وتناسق جميل ، فكان تتمه المشهد واستكمال صورته فى الوصف بكلمة : **(ألفافا)** لتكون خاتمة المشهد ونهاية هذه اللوحة ، ووصولها إلى الهدف والغاية وهى تتمثل فى الجنات والحدائق الملتفة المتلاصقة فى تلاحم وتكاثر وكأنها لفّت كل الأجزاء الصوتية والحركية واللونية فى هذا المشهد الأخير ، فلا يقوم غير هذه الكلمة **(ألفافا)** بتصوير المشهد وحسن الوصف .

وكثيرا ما يأتى الوصف للجنة فى القرآن الكريم بالجملة الفعلية : **(تجرى من تحتها الأنهار)** فيفيد دوام النعيم واستمراره ورسم حركة جرى الماء فى

[1] الرازى –التفسير الكبير – ط٣ – دار إحياء التراث العربى وتحقيقه – بيروت – ١٩٩٩– ١١ / ١١

تلك الأنهار ، وقد جاء موضع وحيد فى القرآن الكريم فى وصف الجنة دون استخدام حرف الجر (من) ، وذلك فى قوله تعالى:

((وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدا)) التوبة (١٠٠)

ولعل مجئ جملة الوصف **(تجرى تحتها)** خالية من حرف الجر (من) مبالغة فى تعظيم المنزل فى هذا المقام .. وقد يكون حذف الجر هنا دل على توسع النعيم وشمول جرى الأنهار تحت جنة أصحابها.جعلنا الله من أهلها .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فالمشهد هنا خاص بدرجة رفيعة لقوم ذوى مكانة خاصة عظيمة ، قد بلغوا الغاية فى الإيمان والتقوى ، فهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، وهم السابقون – أيضا – الذين اتبعوا سيرتهم ونهجهم بإحسان ممن جاءوا بعدهم على مر العصور .

الصراط المستقيم

وصف الصراط بالمستقيم فيه مدح للمنهج وطريق الحق ، فهو موصل إلى الله وجنته ، معروف بالوضوح والهداية ، وقد جاء الوصف فى غير موضع من القرآن الكريم ، حيث يقول تعالى :

((اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ ..)) الفاتحة (٦-٧)

قال الزمخشرى – رحمه الله – هلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ؟ قلت : فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير ، والإشعار بأن

الطريق المستقيم بيانه وتفسيره : صراط المسلمين ، ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده[1]

وقوله سبحانه : ((يَهْدِى مَن يشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة (١٤٢)

وقوله تعالى : ((والله يَهْدِى مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة (٢١٣)

وقوله تعالى : ((وإنَّ الله لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) الحج (٥٤)

وقد جاء التعبير فى آية الحج باسم الفاعل لهاد للدلالة على الاستقبال وترتيب هذه الهداية على أمور سابقة ذكرت قبل هذا فى قوله تعالى : (وَلِيَعْلَمَ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ أنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وإنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ..)) ،بينما جاء التعبير فى آيتى البقرة للدلالة على الحال والاستمرار المترتب على الماضى .. وآية البقرة الأولى تحدثنا عن وقوع الهداية ووقوع تحول القبلة فأخبر المولى عز وجل أن هذه هدايته ، فيقول تعالى :

((سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا ، قُلْ للهِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، يَهْدِى مَن يَشَاءُ إلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة (١٤٢)

وفى الآية الأخرى يقول تعالى :

---

[1] الكشاف ١/١٥-١٦

((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة (٢١٣)

وفى أكثر من موضع يصف الحق سبحانه المسجد أو البيت أو الشهر بالحرام ، فتصير صفة مدح وتعظيم وتكريم بجعل له حرمة عظيمة وذلك فى قوله تعالى :

((فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) البقرة (١٤٤)

وقوله تعالى : ((ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) البقرة (١٩٦)

والمقصود بذلك المصلى الذى يصلى فيه الناس ويكون موضع سجودهم ، وقد يأتى الوصف بالحرام للبيت ، وذلك فى موضعين ، الأول فى قوله تعالى:

((وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً)) المائدة (٢)

والثانى فى قوله تعالى :

((جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ)) المائدة (٩٧)

والمقصود بذلك فى هذين الموضعين : البيت نفسه ، أى الكعبة المشرفة ، ولذلك قال (**آمّين البيت الحرام**) أى قاصدين عين الكعبة ، بينما قال فى الصلاة (شطر المسجد) أى جهته والله تعالى أعلم .

وعظم المشعر فوصفه بالحرام تكريما وتشريفا ، فقال :

((فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ)) البقرة (١٩٨)

وعظم الشهر الحرام بقوله :

((الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ)) البقرة (١٩٤)

<u>* المدح والتعظيم فى وصف المؤمنين</u>

جاء وصف المؤمنين فى كثير من المواضع حاملا المدح لهم بحبهم لله وصدقهم معه ، أو وصفهم بالاصطفاء أو الإخلاص أو الصلاح ، وذلك حسب ما يقتضيه السياق ، فيقول تعالى:

((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) المائدة (٥٤)

(يحبهم) فى موضع جر صفة لقوم ، **(ويحبونه)** معطوف عليه ، ويجوز أن يكون حالا من الضمير المنصوب تقديره : وهم يحبونه . **(أذلة)** و **(أعزة)** صفتان أيضا ، **(يجاهدون)** يجوز أن يكون صفة لقوم أيضا ، وجاء بغير واو كما جاء أذلة وأعزة [1].

---

[1] العكبرى – ٢١٩/١

فجاء الوصف بالحب بين القوم وربهم ، لأن المقام مقام حب الله ، وهذا الحب الإلهى هو الذى منعهم من الارتداد والجحود كما فعل غيرهم .. ثم جاءت صفتهم : أذلة على المؤمنون أعزة على الكافرين . وهذه من دواعى الحب لله ، ومن صفات الجهاد فى سبيل الله ، وهو لا يقوم إلا على حب الله وكذلك قال : **(ولا يخافون لومة لائم)** وقال الزمخشرى : فإن قلت : هلا قيل أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف "كأنه قيل : عاطفين عليهم على وجه التذليل والتواضع . والثانى : أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم [1].

وفى موضع آخر جاء وصف المؤمنين بالحب ، ولكنه مقيد بالتطهر ، كما فى قوله تعالى :

((لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ))
التوبة (١٠٨)

وعلة الوصف هنا أنه مدح للمؤمنين بطهارة قلوبهم من النفاق ونقاء سريرتهم وإخلاصهم ، فى مقابل ما حمله سياق الآيات من ذم للمنافقين الذين أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر والنفاق ، وكان ومن مظاهر ذلك أن بنوا مسجدا سماه الله - سبحانه - بمسجد الضرار ، فجاء النهى فى صدر هذه الآية : **(لا تقم فيه أبدا)** وقوله **(لمسجد)** بالتوكيد باللام والتنكير يفيد التعظيم فى سياق مجازى فى قوله **(على التقوى)** جعل قوائمه وأساس بنيانه التقوى .

وجاء وصف المؤمنين **بالصدق** فى قوله تعالى :

---

(١) الكشاف ١/٦٤٨

((وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)) الأحزاب (٢٢-٢٣)

فجاء وصفهم بالصدق هنا دون غيره من الصفات الحميدة ، لإبراز موقف الوفاء والثبات القائم على الصدق مع الله ، وذلك عندما رأوا أحزاب الكافرين مجتمعين فى الخندق ، فثبتوا على عهدهم وميثاقهم مع الله ، وقالوا **(وصدق الله ورسوله)** فجاء وصفهم بالصدق .. وجاء الأسلوب مسوقا بالتأكيد عن طريق تكرار لفظ الجلالة والرسول **(الله ورسوله)** ، وأسلوب القصر والحصر عن طريق النفى والاستثناء .

وهذا الموقف الإيمانى الصادق ، كان فى مقابل موقف الغدر ونقض العهد مع الله ثم تخلو عن الرسول ﷺ وهو ما بينه فى قوله :

((وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا . وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا . وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ، إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا)) الأحزاب (١٢-١٣)

فقال المؤمنون : **(هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله)** وقال المنافقون : **(لا مقام لكم فارجعوا)** – **(إن يريدون إلا فرارا)** .

ويأتى وصف المؤمنين بصفات أخرى غير ما سبق ، فقد يصفهم الحق سبحانه **بالصلاح** ليلفت الذهن إلى أثر الصلاح .. صلاح النية والعقيدة والقول والعمل ، أو بالاصطفاء أو الإخلاص ، ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

((ومَالَنَا لَا نُؤمِنُ باللهِ ومَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِين)) المائدة (٨٤)

فوصف القوم بالصلاح جاء مترتبا على أسبابه المتقدمة من صفات الصالحين ، وهى الإيمان بالله تعالى وما جاء من الحق والاستفهام فى صدر الآية **(ومالنا ..)** يفيد الإنكار والاستبعاد ، وقوله تعالى :

((ولَقَد كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ . إِنَّ فى هَذَا لَبَلَاغًا لقَومٍ عَابِدِينَ)) الأنبياء (١٠٥-١٠٦)

فأضاف العباد إليه سبحانه فى ضمير : **(عبادى)** وهى إضافة تشريف وتعظيم ، ووصفهم بالصلاح هنا قد ناسب ميراث الأرض (سواء كانت الجنة أو أرض الدنيا على اختلاف المفسرين) لأن نقيض الصلاح هو الفساد ، والفساد يهلك الأرض والحرث والنسل .. ومن تناسب الوصف وتناسقه ، أن وصف القوم فى آخر الآية بالعبادة **(لقوم عابدين)** والتعبير باسم الفاعل **(عابدين)** تغنى تأصل العبادة فى نفوسهم واستمرارهم عليها .

وقوله تعالى :

((فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وأَنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ)) النمل (١٩)

فقوله **(فى عبادك الصالحين)** محمول على ما تقدم من قوله : **(وأن أعمل صالحا)** ، وعلى ما تقدم أيضا من صفات عباد الله الصالحين من شكر نعمة الله ..

وقد وصفهم بالاصطفاء ، كما فى قوله تعالى :

((قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)) النمل (٥٩)

على اعتبار أن الوصف باسم الموصول (الذين) ، فإنه مع جملة صلته (اصطفى) يعطى دلالة على الموقف الذى نحن بصدده فى هذه الآية حتى آثر التعبير بالاصطفاء دون غيره من التقوى أو الصلاح مثلا ، وذلك أن الكلام متصل بما قبله فى قوله تعالى :

((فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)) النمل (٥٧-٥٨)

فأمر "بالتحميد على الهالكين من كفار الأمم والصلاة على الأنبياء عليه السلام ، وأشياعهم الناجين ، وقيل : هو خطاب للوط عليه السلام ، وأن يحمد الله على هلاك كفار قومه . ويسلم على من اصطفاه الله ونجاه من هلكتهم وعدمه من ذنوبهم"[(١)]

وفى سورة الصافات تكرار الوصف بالمؤمنين ، والمخلصين ، وذلك لتكرار الموقف أو المشهد الذى حمل ذلك الوصف .. فجاء قوله : (عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ) أربع مرات :

---

(١) الكشاف ٣ / ٣٧٥

الأول :
((سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ)) الآيات (٧٩-٨٢)

الثانى :
((سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٠٩-١١١) .

الثالث :
((سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٢٠-١٢٢)

الرابع :
((سَلَامٌ عَلَى إِلْيَاسِينَ . إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)) الآيات (١٣٠-١٣٢)

فتكرر الوصف بالإيمان فى المشاهد الأربعة ، لأن جميعها كانت فى مقابلة كفر الكافرين وإنكارهم وجحودهم ، وقد ذكرهم الله جميعا **بالمحسنين** ، لأنهم لم يقابلوا السيئة بالسيئة بل باللين والإحسان ..

وقوله تعالى : **(سلام على نوح فى العالمين)** (٧٩) ، وبعده : **(سلام على إبراهيم)** (١٠٩) ثم **(سلام على موسى وهارون)** (١٢٠) وكذلك : **(سلام على إلياسين)** (١٣٠). ولم يقل فى قصة لوط ولا يونس ولا إلياس : **(سلام)** ، لأنه لما قال : **(وإن لوطا لمن المرسلين)** (١٣٣) ، **(وإن يونس لمن المرسلين)** (١٣٩) ، وكذلك : **(وإن إلياس لمن المرسلين)** (١٢٣) ، فقد قال سلام على كل واحد منهم ، لقوله فى آخر السورة **(وسلام على المرسلين)** (١٨١) .

وقوله تعالى : (**إنا كذلك نجزى المحسنين**) فى سائر الرسل . وقال تعالى فى إبراهيم : (**كذلك نجزى المحسنين**) بدون (**إنا**) ، ولم يقل ذلك فى شأن لوط ويونس . للاكتفاء بما تقدم ذكره ، فكفى عن الثانية [1].

أما وصف عباد الله بـ : (**المخلصين**) ، فقد جاء فى ثمانيـة مواضـع من القرآن الكريم ، خمسة فى سورة الصافات وحدها .. وموضع فى (**يوسف**) فـى قوله تعالى :

((كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)) الآية (٢٤)

وموضع فى سورة (الحجر) ، فى قوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُم فى الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)) الآيتان (٣٩-٤٠)

وموضع فى سورة (ص) ، فى قوله تعالى :

((قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ منهم الْمُخْلَصِينَ)) الأنبياء (٨٢-٨٣)

أما مواضع (**المُخْلَصِين**) فى سوة الصافات ، فهى فى قوله تعالى :

((وما تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُم تَعْمَلُون . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِين)) (٤٠)

---

[1] انظر : أسرار التكرار فى القرآن ص١٨٠ - وكشف المعانى ص٣٠٨

((فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)) (٧٤)

((فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٢٨)

((سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ . إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٦٠)

((لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ)) (١٦٩)

وبالنظر إلى المواضع الثمانية ، نجد أن وصف العباد بـ **(المخلصين)** قد جاء في معرض التخلص من موقف سوء وفحش ، أو سلوك جحود وعصيان ، وفي لسان العرب (مادة خلص) : خلص الشئ يَخْلص خُلوصا وخلاصا : إذا كان قد نَشِبَ ثم نجا وسلِم . وأخلص الشئ : اختاره . والمُخْلَص : الذى أخلصه الله جعله مختارا خالصا من الدنس .

*** الذم والتحقير**

قد يأتى الذم والتحقير فى مواضعه من القرآن الكريم لذم شخص أو خُلق ، فيظهر فى صورة منفرة تأباها النفس السوية وتفر منها .. فجاء وصف القوم بالفاسقين فى قوله تعالى :

((اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ، واللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ))
التوبة (٨٠)

فوصف القوم بالفاسقين ، وكان مقتضى السياق أن يصفهم بالكافرين حملا على ما سبق من قوله : **(كفروا بالله ورسوله)** . ولكن الوصف بالفسوق

يأتى فى مواقف إيذاء الكافرين للمؤمنين واعتدائهم عليهم ، وهذا ما دل عليه سياق الآيات قبل هذه الآية فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُم سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ))
التوبة (٧٩)

وكذلك قوله تعالى :
((وإذ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ، واللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ))
الصف (٥)

فلم يكتفوا بعدم الإيمان والاتّباع ، ولكنهم عصوا وخرجوا عن الطريق المستقيم وآذوا موسى عليه السلام ، ولذلك وصفهم بالفاسقين [١].
وقوله تعالى :

((وإذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ [٢] وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)) المنافقون (٥-٦)

فهذا التصرف المعاكس منهم للرسول ﷺ من تحريك رؤوسهم باستهزاء وسخرية **(لووا رؤوسهم)** وصدهم واستكبارهم ، أدى إلى وصفهم بالفاسقين .
وقد يأتى **وصف القوم بالفساد** وليس بالفسق ، كما فى قوله تعالى :

---

[١] فى اللسان مادة (فسق) الفسق : العصيان ، والترك لأوامر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق وكذلك الميل إلى المعصية

[٢] لووا رؤوسهم : حركوها فى استهزاء .

((أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ، فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ)) العنكبوت (٢٩-٣٠)

فطبيعة الأفعال هنا وتعددها جلبت الوصف بالفساد .. فهم يأتون الرجال – ويقطعون السبيل – ويأتون فى ناديهم المنكر ، وهذا كله إذا اجتمع كان فسادا وإفسادا .. وقد جاء فى موضعين آخرين من القرآن الكريم ذم هؤلاء القوم دون وصفهم بالفساد ، كما فى قوله تعالى :

((وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ . إِنَّكُم لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُم قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ))
الأعراف (٨٠-٨١)

فلم يقل (قوم مفسدون) ، ولعل السبب فى ذلك أن الذم والتحقير كان بسبب فعل واحد فى هذا الموقف وإتيان الرجال ، دون أن يذكر معه فعلا آخر .. وقال تعالى :

((أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ، بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ))
النمل (٥٥)

فالوصف بالإسراف فى آية (الأعراف) ، والوصف بالجهل فى آية (النمل) كلاهما يبرز جانبا من حال هؤلاء ، فقد أسرفوا أى أفرطوا إفراطا فى اتباع نبى الله لوط ، وهم فى الوقت ذاته قد جهلوا تحريم هذه الجريمة وعقوبتها عند الله .

فجاء بالاسم : (مسرفون) فى آية الأعراف ، وجاء بالفعل : (تجهلون) آية النمل ، لأن كل إسراف جهل ، وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم

موافقة لرؤوس الآيات التى تقدمت ، وكلها **أسماء** : (مفسدين (٧٤) – مؤمنون (٧٥) – كافرون (٧٦) – المرسلين (٧٧) – جاثمين (٧٨) – الناصحين (٧٩) – العالمين (٨٠) .. وفى سورة النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها **أفعال** : (لقوم يعلمون (٥٢) وكانوا يتقون (٥٣)-وأنتم تبصرون (٥٤))[1]

وقوله تعالى : (ولوطا إذا قال لقومه أتأتون الفاحشة) (الأعراف ٨٠) وهو استفهام غرضه البلاغى التبكيت والتعجب الإنكارى وقد جاء بعده قوله تعالى : (إنكم لتأتون الرجال) (الأعراف ٨١) فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقريع والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر . ومثله فى سورة النمل : (أتأتون) (الآية ٥٤) ، وبعده (أئنكم لتأتون الرجال) فجمع بين : (إن - وأئن) وذلك لموافقة آخر القصة ، فإن فى الآخر : (إنا منجوك) (٣٣) (إنا منزلون) (٣٤) ، وجمع القصص المذكورة لم يأت الجزاء فيها مؤكدا ، فقد جاء فى الأعراف (فأنجيناه) (الآية ٦٤) ، وفى النمل : (فأنجيناه وأهله إلا امرأته) (الآية ٥٧) ، أما فى العنكبوت فالجزاء : (إنا منجوك وأهلك) (الآية ٣٣) و (إنا منزلون) . فاقتضى تكرار التأكيد لمعنى التقريع مرتين : بالاستفهام الإنكارى – وإن)[2].

وقد يأتى **وصف القوم بالظالمين** ، والظلم – كما فى اللسان – وضع الشئ فى غير موضعه والجور ومجاوزة الحد ، وقد يأتى الوصف بالظلم فى القرآن لينصرف بالدرجة الأولى إلى الشرك والكفر بالله ، فهو ظلم له - سبحانه - وهو ظلم للنفس ، لأنه الظالم سقط فى مستنقع الهلاك ومن ذلك قوله تعالى :

((.. قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ، وَاللهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)) البقرة (٢٥٨)

---

[1] أسرار التكرار فى القرآن الكريم ص٨٦

[2] نفسه ص٨٥

فلم يقل (**القوم الكافرين**) حملا على ما تقدم من قوله : (**الذى كفر**) ، لأن التقريع هنا موجه لموقف بذاته وهو الشرود عن الحق ونسب هذا النمرود الموت والحياة لنفسه واستطاعته عليه ، وهذا من أبلغ الظلم .

وقوله تعالى : ((كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وجَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ)) آل عمران (٨٦)

وهنا – أيضا – لم يقل (القوم الكافرين) حملا على قوله (قوما كفروا)لأن التبكيت والتوبيخ على موقف محدد وهو ارتدادهم عن الإسلام بعد أن رأوا بيانه وعلموا أنه حق ، ففيه ظلم زائد على الكفر .

وقوله تعالى :

((أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ وعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وجَاهَدَ فى سَبِيلِ اللهِ ، لايَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ)) التوبة (١٩)

وقوله سبحانه وتعالى فى نفس السورة الكريمة فى موضع آخر :

((أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَه عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[1] فانْهَارَ به فى نَارِ جَهَنَّمَ ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ)) التوبة (١٠٩)

---

[1] شفا جر هار : طرف حفيرة فى نار جهنم . فالهار : سقط بنيانهم .

جاء الوصف بالظلم هنا ، لأن الموقف فى الآية محمول على ما سبق ، وهو ما أقاموا من مسجد ، سماه الله بمسجد الضرار وأرادوا به التفريق بين جماعة المسلمين ، وذلك فى قوله تعالى :

((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ..)) التوبة (١٠٧)

ولا شك أن الاعتداء على المسلمين بالضرر والتفريق والإرصاد والحرب هو أبلغ الظلم ، ولذلك جاء وصفهم بالظالمين ، ومما زاد الوصف تهويلا وتقريعا أنه جاء فى سياق استفهام الإنكارى والتعجب فى المشاهد الثلاثة الأخيرة .

وقد يأتى الوصف بالظلم بالجملة الفعلية فيدل دلالة مغايرة لما سبق ، وذلك فى قوله تعالى :

((مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ [1] أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ، وما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ))
آل عمران (١١٧)

(قوم ظلموا) وصفهم بالجملة الفعلية ، وعلة ذلك ـ والله أعلم ـ أن الوصف بالظلم لم يكن عن موقف أو شئ فعلوه وانتهى ، ولكن الظلم هنا متجدد ، فهم يستمرون فى حركتهم العدائية للإسلام ، ويستمرون فى إنفاق أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، ولذلك تكرر ذكر الظلم فى الآية ثلاث مرات ، لمزيد من لبيان والتأكيد ، ولكى يبين نفوسهم الظالمة ويثير الذهن إليها قدمها على الفعل فى قوله : (أنفسهم يظلمون) .

---

(1) صِرّ: برد شديد أو نار محرقة .

أما إذا كان الموقف الوصفى حاملا لبيان الكفر الذى هو نقيض الإيمان ، فيأتى الوصف به ، وذلك كما فى قوله تعالى :

((يَأَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ، وإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِى القَوْمَ الكافِرِينَ)) المائدة (٦٧)

فالموقف هنا يبين وصف هؤلاء تجاه الرسالة (القوم الكافرين) ، فالموقف هنا موقف تبليغ ، والناس بصدده مؤمن أو كافر .. ولأنه موقف رسالة وتبليغ ، جاء صدر الآية بقوله : **(يأيها الرسول)** دون (يأيها النبى) مثلا ، وقال (بلغ) - (رسالته) ،وهو ما جاء - أيضا - فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، الذين كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الخَاسِرِين . فتَوَلَّىٰ عَنهُم وقَالَ يَا قَوْمِ لَقد أَبْلَغْتُكُم رِسَالاَتِ رَبِى وَنَصَحْتُ لَكُم ، فكيفَ آسَىٰ عَلَىٰ قومٍ كَافِرِين)) الأعراف (٩٢-٩٣)

فالمشهد بين موقف التكذيب للرسالة ، والكفر بالبلاغ الحق ، فوصفهم بـ **(قوم كافرين)** ، فلا يصلح هنا وصفهم مثلا : بالمفسدين أو الظالمين أو المسرفين أو نحو ذلك ، وإن كانت هذه الصفات متحققة فيهم ، إلا أننا هنا بحكم الموقف المحدد الذى برزت فيه الصفة الغالبة والتصرف المضاد لنبى الله شعيب وهو التكذيب والكفر ، والرغبة عن التصديق والإيمان بالرسالة السماوية .

وجاء – أيضا – وصف القوم بالكافرين فى قوله تعالى :

((إِنَّما النَّسِئُ[1] زِيَادَةٌ فِى الْكُفْرِ ، يُضَلُّ به الذيـنَ كَفَرُوا يُحِلُّونَـهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللهُ ، زُيِّنَ لَهُم سُوءُ أَعْمَالِهِم ، واللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)) التوبة (٣٧)

فالوصف بـ **(الكافرين)** هنا محمول على ما تقدم من أسبابه ومظـاهره ، وليس أدل على الكفر – نقيض الإيمان – ممن أحل ما حرم الله أو حرم ما أحـل الله ..

وقد جـاء ختـام الآيـة هنـا بقولـه : **(والله لا يـهدى القـوم الكـافرين)** لأن الجملة خبرية ، وجاءت الواو على الاستئناف ، أما فى آية المائدة (٦٧) ، فجاء ختام الآية بقوله : **(إن الله لا يهدى القوم الكافرين)** بالتوكيد بـ (إن) لأن الكـلام محمول على ما سبق من إنكار المنكرين وتكذيبهم . والله تعالى أعلم .

وربمـا جـاءت كلمـة الكفر موصوفـة بصفـة أخـرى . وذلـك حسـب مـا يقتضيه الموقف ، كما فى قوله تعالى :

((يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِى الصَّدَقَاتِ ، واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ))
البقرة (٢٧٦)

جاء التعبير بـ (كفار) على مبالغة الكفر من هؤلاء ، ثم الوصف البليغ بـ (أثيم) لأنهم أحلوا ما حرم الله ، بأن جعلوا الربا الحرام حـلالا كـالبيع ، فـالكلام محمول على ما سبق فى قوله :

((.. قَالُوا إِنَّما البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا))
البقرة (٢٧٥)

---

[1] النسئ : تأخير العرب لأشهر الحرم ، فيحاربون فيها إذا احتاجوا لذلك بأن يبدلوا شهرا من الأشهر .

وقوله تعالى

((وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ، إِنَّ الإنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِين)) الزخرف (١٥)

فوصف (كفور) بالمبين مع تأكيده باللام وإن لأن السياق مبنى على الحديث عن هؤلاء الكافرين الذين جعلوا لله تعالى ولدا والولد جزء من الوالد ، فكيف والكل عباده ، فوحدانية الله ظاهرة لكل ذى بصر .

وقوله تعالى :

((وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ . أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ . الذى جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ . قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ)) ق (٢٣-٢٧)

فوصف الكفار هنا بأوصاف كثيرة : عنيد ، مناع للخير ، معتد ، مريب ، .. وهذا التعدد فى تلك الصفات ونوعيتها ، وما بنيت عليه من صيغ للمبالغة يدل على سوء عاقبة هذا الإنسان وشدة عذابه الناتج عن قبح فعله وقوله فى الحياة الدنيا .. ووصف الضلال هنا بالبعيد ، فيه دلالة على شدة الغواية وبعد الضلال وفداحته ..

ولفظ **(الضلال)** فى القرآن الكريم يأتى أحيانا مطلقا دون وصف كقوله تعالى **((وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال))** (الرعد ١٤) ، وقوله : **((وما كيد الكافرين إلا فى ضلال))** (غافر ٢٥) فأطلقه دون قيد أو وصف ليكون عاما شاملا ويأتى موصوفا بالبعيد أو بالمبين أو بالكبير ، أو موصوفا فى سياق المفعول المطلق ، ومن ذلك قوله تعالى :

((الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أولئكَ فِى ضَلالٍ بعيد)) إبراهيم (٣)

وقوله تعالى :
((يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لايَضُرُّه وَمَا لا يَنفَعُه ، ذَلكَ هُو الضَّلالُ البَعِيدُ)) الحج (١٢)

فالوصف بالبعيد دون المبين للدلالة على شدة بُعد الضلال ، ولبيان ما عليه هؤلاء من كفر وشطط هائل .. والوصف بالبعيد يأتى فى الأمور المتعلقة بالعقيدة واليوم الآخر وما يكون عليه أهل الشرك والكفر من الصد عن سبيل الله ومحاربة منهج الله ودعاته .. فهم لا يكتفون بعدم استجابتهم ، ولكن يجتهدون فى الحرب والاعتداء على من استجاب لله ورسله ومن ذلك قوله ذلك قوله تعالى :

((وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُم عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُم إذا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنَّكُم لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أم بِهِ جِنَّةٌ ، بل الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخرةِ فِى العذابِ والضَّلالِ البَعِيدِ)) سبأ (٧-٨)

فتهكموا وسخروا **(هل ندلكم ..)** ، ثم اتهموه بالكذب والجنون ، فجاء الوصف بالبعيد .

بينما **جاء وصف الضلال بالمبين** فى موضع آخر فى قوله تعالى :

((وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أولئكَ فى ضَلَالٍ مُبِينٍ)) الأحقاف (٣٢)

فلم يذكر – سبحانه – سلوكا معاديا ولا اعتداء ، ولكن عدم استجابة فحسب ، فجاء الوصف بالمبين .

ومن ذلك الوصف ما جاء كثيرا فى القرآن الكريم فى مواقف ليست فى شدة الوصف بالبعيد ، كما فى قوله تعالى :

((إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) آل عمران (١٦٤)

وقوله تعالى : **((إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِين))** يوسف (٨)

ولننظر إلى الوصف الوارد فى سياق المفعول المطلق بين قوله تعالى :

((وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا)) النساء (١١٦)

وقوله تعالى : **((وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِينًا))** الأحزاب (٣٦)

فجاء الوصف بالبعيد وإطلاق المفعول ، لأن سياق الحديث عن الشرك وهو أفدح الذنوب وأعظمها .. بينما آية الأحزاب تتحدث عن العصيان ، وهو خطاب للمؤمنين ينهاهم عن مخالفة حكم الله ورسوله ، وصدر الآية هو :

((وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ..))

وجاء الوصف للضلال بالكبير فى موضع واحد فى القرآن الكريم ، وذلك فى قوله تعالى :

((قَالُوا بَلَى قد جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِن شَئٍ إِنْ أَنتُم إِلاَّ فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ)) الملك (٩)

فجاء وصف الضلال بـ (الكبير) هنا لينبئ عن حال هؤلاء الكافرين وقت، استقبالهم الرسل فى الدنيا ، فقد رأوا ما جاءوا به من منهج أمرا كبيرا واعتبروه جريمة وكبيرة من الكبائر .. وفى السياق ما يدل على ذلك ، إذ نفوا نفيا قاطعا نزول شئ من الوحى ، وهو فى قوله : **(من شئ)** فـ **(شئ)** بلفظها وتنكيرها ودخول **(من)** التبعضية عليها فى سياق النفى قد دل على ذلك .. وكذلك سياق الحصر والتوكيد بـ **(إن)** الدالة على النفى مع الاستثناء ، وإيثار **(إن)** على **(ما)** مثلا لمزيد من التوكيد وبيان الإصرار على موقفهم .

أما **وصف الشيطان** فقد جاء بصفات عديدة فى مواضع مختلفة ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا للنَّاظِرِينَ . وَحِفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ)) الحجر (١٧)

فصفته أنه رجيم ، أى ملعون ، مطرود من رحمة الله ، وإيثار صيغة رجيم على مرجوم مثلا ، لبيان الكثرة والمبالغة فى الرجم ، حتى صار رجمه صفة متأصلة فيه لمداومته على الشر .. وقوله سبحانه : (كل شيطان رجيم) أفاد العموم وقد أفاد العموم فى موضع آخر عن طريق لام الجنس ، وذلك فى قوله تعالى :

((فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) النحل (٩٨)

فقد جاء التعبير عن إدارة الفعل بلفظ الفعل ، لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل[1]. والفاء لترتيب الاستعاذة على العمل الصالح ، والتقدير : فإذا أخذت فى قراءته ، فاستعذ ، وتخصيص قراءة القرآن من بين الأعمال الصالحة بالاستعاذة عند إرادتها ، للتنبيه على أنها لسائر الأعمال الصالحة عند إرادتها أهم[2].

بينما جاء وصف الشيطان بصفة المريد فى موضع آخر ، وذلك فى قوله تعالى :

((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ)) الحج (٣)

فجاء الوصف باسم المفعول (مريد) لبيان أن بعض الناس يريدون اتباعه فى الكبر والميل عن الحق ، وقد جاء نفس التعبير باسم بالمفعول - أيضا - فى سياق الحديث عن سلوك بعض الناس مع أفعال الشيطان ، وذلك فى قوله تعالى :

((إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّآ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا)) النساء (١١٧)

وجاء التعبير بنفس الصفة ، ولكن باسم الفاعل فى قوله تعالى :

((إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ)) الصافات (٦-٧)

---

(١) الكشاف ٦٣٣/٢

(٢) فتح القدير ٢٦٧/٣ - ٢٦٨

فالمريد والمارد ، كلاهما لوصف الشيطان وما انطوت عليه طبيعته من الخبث والشر والتمرد ، والمارد : الذى يجئ ويذهب نشاطا[1] .. فالتعبير بالمريد بين قصد القاصدين له واتباعهم إياه .. ومارد بين فعل الشيطان وكيفية تحركه فى عتو وشدة ، ولذلك جاءت صيغة (مارد) فى سياق الحديث عن السماء وزينتها وحفظ الله لها من تمرد الشيطان وعتوه .

* **الوعيد والتهويل**

تأتى كلمة العذاب فى القرآن الكريم لتبين شدة عقاب أهل النار وتهويله ، وهذه الكلمة قد تأتى مضافة مثل : (عذاب الخلد) (يونس ٥٢) ، ومثل (عذاب ربك) (الإسراء ٥٧) ومثل : (عذاب الله) (إبراهيم ٢١) .. وقد تأتى كلمة العذاب مطلقة من كل قيد ، ولكنها تجمع الوعيد والتهويل عن طريق تعريفها بأل ، مثل : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا) (إبراهيم ٤٤) .. وقد أتت كلمة العذاب موصوفة بصفات مختلفة ، كقوله تعالى فى وصف العذاب بالعقيم ، وهو الوصف الوحيد فى القرآن الكريم كله :

((وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ)) الحج (٥٥)

فالوصف جاء لليوم (يوم عقيم) وأضيف العذاب إلى اليوم ، وهذا تركيب يفيد مزيدا من التهويل يبرز هول الساعة وإتيانها فجأة **(تأتيهم الساعة بغتة)** ، فالجمع بين الساعة والعذاب فى اليوم[2] يبرز المشهد فى صورة عقيمة ، لا تنتج أى خير لأهل العذاب ، و **(عقيم)** على الاستعارة "والاستعارة

---

[1] اللسان مادة (مرد)

[2] هو يوم القيامة وقد يشمل يوم بدر – أيضا – على اختلاف المفسرين .

أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لا خير بعده للمعذبين . فقيل : يوم عقيم . أى لا ينتج خيرا ، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم"[١].

وقد ورد الوصف بكلمة (العقيم) ثلاث مرات فى القرآن ، الأولى فى سورة الحج (الموضع السابق) ، والثانية فى سورة الذاريات فى قوله تعالى : (.. وقالت عجوز عقيم) (الآية ٢٩) ويجوز أن تكون (عقيم) خبرا ثانيا ، والموضع الثالث فى قوله تعالى :

((وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم الرِّيحَ الْعَقِيمَ)) الذاريات (٤١)

(العقيم) "مستعار للريح ، وحقيقته ريح لا يأتى بها سحاب غيث ، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التى لا تأتى بمطر ، لأن ما لا يقع من أجل حال منا فيه أوكد مما يقع من غير منافية وأظهر "[٢].

ويقول تعالى :

((إِنَّ الذينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِم أَأَنذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللهُ عَلَى قلوبِهم وعلى سَمْعِهم وعَلَىَ أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ ولهم عَذَابٌ عَظِيمٌ . وَمِنَ النَّاسِ مَنَ يقولُ آمَنَّا باللهِ وباليَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤمِنين . يُخَادِعُونَ اللهَ والذينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إلاَّ أنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُون ، فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)) البقرة (٦-١٠)

---

[١] الرماني – النكت فى إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمّانى والخطّابى وعبد القاهر الجرجانى – تحقيق محمد خلف الله و د/ محمد زغلول سلام ط٤ – دار المعارف – القاهرة – ١٩٩١– ص٨٩

[٢] نفسه ص٩٣(وقد جاءت كلمة العقيم فى موضع رابع وأخير منصوبة على المفعولية ، وذلك فى سورة الشورى الآية (٥٠)

فقد استخدم السياق صفة العظمة للعذاب مع الكافرين[1] ، فيقول تعالى : (ولهم عذاب عظيم) ، واستخدم صفة الألم للعذاب مع المنافقين ، فيقول جل شأنه : (ولهم عذاب أليم) .. وقد تفننت الآيات الكريمة فى ذلك فى غير موضع

فأحيانا يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) البقرة (٧)

وأخرى يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) البقرة (١٠)

وثالثة يقول تعالى : ((لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)) آل عمران (٤)

ورابعة يقول تعالى : ((وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)) آل عمران (١٧٨)

وهى "مراتب وأحوال لأهل النار - عافانا الله تعالى - فلأنهم سارعوا إلى المعاصى والجحود ، فلهم عذاب عظيم ، فالمسارعة تكون لأمر هائل .. وهذا العذاب هائل شديد ، يأتى عليهم كما تأتى النار على الحطب ، وهو يصيبهم بالألم الموجع لأنهم خدعوا أنفسهم واشتروا الكفر بالإيمان ، والمخدوع أو المشترى المغبون يتألم .. ثم هم مع ذلك فى عذاب يهينهم ويذلهم ، وهم الذين طلبوا العزة والكرامة"[2].

وجاء وصف العذاب بـ (مقيم) فى قوله تعالى :

((يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ)) المائدة (٣٧)

---

(١) د/ محمد موسى – التنكير وأثره البلاغى فى القرآن الكريم –ط١– مطبعة الأمل – المنصورة – ٢٠٠٠ – ص٨٢

(٢) محمد رشيد رضا – تفسير المنار – ط٤ – دار المنار – القاهرة – ١٩٥٤ – ٤ /٢٥٣

فنفى الخروج المؤكد بالباء فى قوله (وما هم بخارجين منها) استجلب الوصف بالإقامة لأن نفى الخروج يعنى الإقامة ، فالوصف محمول على ما سبق مؤكد له .

وجاء وصف العذاب بـ **(كبير)** فى قوله تعالى :

((.. وإن تَوَلَّوْا فإنِى أخافُ عَلَيْكم عَذابَ يومٍ كَبِيرٍ)) هود (٣)

قوله تعالى : **(عذاب يوم كبير)** هو يوم القيامة ، ووصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل . وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شئ ، فكان قادرا على أشد ما أراد من عذابهم لا يعجزه[1].

* وجاء وصفه بـ **(قريب)** فى نفس السورة ، فى قوله تعالى :

((ويَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُم آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِـى أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُم عَذابٌ قَرِيبٌ)) هود (٦٤)

فجاء وصف (عذاب قريب) هنا حملا على ما سبق وعلى ما لحق - والله تعالى أعلم - مما سبق كان فى قوله تعالى : **(فاسْتَغْفِرُوه ثُمَّ تُوبُوا إليْه إنَّ رَبِى قَرِيبٌ مُجِيبٌ)** (هود ٦١) فأخبر أنه - سبحانه - قريب الرحمة ، مجيب الدعاء ، فكان فى مقابلة ذلك أنه قريب العذاب ، وهذا يرد كثيرا فى سياق القرآن الكريم ، فيأتى الترغيب والترهيب معا ، ويُذكر نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وكان اللاحق لقوله : (عذاب قريب) قوله :

[1] الكشاف ٢ / ٣٧٨

((فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ))
هود (٦٥)

فوصف العذاب بالقريب ، لشدة قرب وقوعه ، فقد وقع عليهم بعد ثلاثة أيام ، وقيل : عقروها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت .

* وجاء الوصف بـ **(محيط)** فى قوله تعالى :

((.. وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)) هود (٨٤)

فهذه الأوصاف السابقة جميعا إذا ضمت إلى بعضها ألفت مشهدا موحدا يضم أجزاء مختلفة وجوانب عديدة ، فالعذاب - عياذا بالله - عظيم وشديد وأليم ومهين ومحيط .. فهو مراتب وأحوال ..

وقال الزمخشرى : **(يوم محيط)** مهلك من قوله تعالى : **(وأحيط بثمره)**[1] وأصله من إحاطة العدو فإن قلت : وصف العذاب بالإحاطة أبلغ أم وصف اليوم بها ؟ قلت : بل وصف اليوم بها لأن اليوم مازال يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط بنعيمه [2].

* وجاء وصف العذاب بـ **(واصب)** فى قوله تعالى :

((وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ)) الصافات (٧-١٠)

---

[1] الكهف (٤٢)

[2] الكشاف ٢ /٤١٧

ووصف العذاب بالواصب هنا **هو الوصف الوحيد** فى القرآن كله ، وهو عذاب الآخرة خاص بالشياطين ، ويؤكد ذلك تقديم شبه الجملة (لهم) أى لهم خصوصا .. وهو "عذاب دائم لا ينقطع ، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الواصب : الدائم ، وقال السدى وأبو صالح والكلبى : هو الموجع الذى يصل إلى القلب ، مأخوذ من الوصب وهو المرض . **(شهاب ثاقب)** : نجم مضئ فيحرقه فيلقى إلى إخوانه ما خطفه ، وأصل الثقوب : الإضاءة"[1].

* وجاء وصف العذاب بـ **(غليظ)** فى قوله تعالى :

((..فَلَنُنَبِّئَنَّ الذينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وإذا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانَ أعرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وإذا مَسَّهُ الشرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ))
فصلت (٥٠-٥١)

جاء وصف العذاب بالغليظ هنا لمناسبة قوله **(ولنذيقنهم)** ، وقد ورد فى القرآن الكريم أن الكافر يذوق العذاب بجلده ، يقول تعالى :

((كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ))
النساء (٥٦)

وفى الحديث الشريف بين النبى ﷺ أن جِلْد الكافر غليظ يقول : (إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة"[2] ، فجاء وصف (غليظ) للعذاب ليناسب غلظ هذه الجلود ، وهذا من إعجاز الوصف القرآنى فى توافق الآيات مع بعضها ، ومع كلام النبى ﷺ .

---

[1] فتح القدير ٤ /٥١١

[2] أخرجه الترمذى عن أبى هريرة ﷺ ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح غريب ، وقال الألبانى : إسناده صحيح .

وجاء وصف النار بـ (**الموقدة**) فى قوله تعالى :

((نَارُ اللهِ المُوقَدةِ . الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ . إِنَّها عَلَيْـهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِـى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ)) الهمزة (٦-٩)

فجاء وصف النار بالموقدة مع إضافتها إلى لفظ الجلالة (**الله**) فتزداد تهويلا على تهويل ، وربما يكون الوصف بالاشتعال هنا (**الموقدة**) ليبرز حقيقة أمر ذلك الذى منع ماله عن الصدقة ، فهو لا يدخر لنفسه مالا - كما يعتقد - وإنما يتحول المال إلى حطب اشتعال فى نار الله الموقدة ، ثم وصف أعمدتها بالممددة لمزيد من التهويل والوعيد .

* ومن وصف الوعيد والتهويل ، قوله تعالى :

((فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)) هود (٨٢)

فوصف الحجارة بأنها من سجيل وأن السجيل منضود .. والسجيل : الطين المتحجر بطبخ أو غيره ، وقيل : هو شديد الصلب من الحجارة ، و (منضود) أى : نضد بعضه فوق بعض[1]. وهذا الوصف يخرج الحجارة عن نوعيتها المعتادة للقوم .

* ومن وصف الوعيد والتهويل ، قوله تعالى :

---

[1] فتح القدير ٢ / ٧١٧

((وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)) طه (١٢٤)

فوصف المعيشة بالضنكى .. والمرجح أن يفسر بعذاب القبر ، وفيه الضيق والشقاء لهذا المعرض ، وهو الذى طلب بإعراضه عن ذكر الله السعادة والسعة ، فكان الجزاء من جنس العمل .

*** البيان والتوكيد**

قد تأتى الصفة لتؤكد حقيقة من الحقائق ، أو لتبين أمرا عرض فى سياق القرآن فيتحدد بعينه فى الذهن فلا ينصرف إلى غيره ، فيعيش القارئ طبيعة المشهد فى حضور وحيوية ، ومن ذلك قوله تعالى :

((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ، لا إِلَهَ إِلا هُوَ ، سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) التوبة (٣١)

فوصف **(إلها)** بـ **(واحد)** ليثبت الألوهية ويثبت الوحدانية ، وهو فى مقام تأكيد التوحيد وبيان العقيدة الصحيحة ، وقد جاء الوصف فى سياق أسلوب القصر المقيد للحصر والتوكيد - أيضا - **(وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا)** ، ووصف المسيح بـ **(ابن مريم)** للتأكيد على عبوديته ، وهو يذكر كثيرا فى القرآن بذلك الوصف[1] ..

---

(١) قد يأتى فى بعض المواضع غير موصوف ، لاستغناء السياق عن ذلك الوصف بدلالته على عبودية عيسى (عليه السلام) كقوله تعالى **(ولما جاء عيسى بالبينات ..)** ولم يقل (ابن مريم) لأنه قال بعدها **(إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه)** (الزخرف ٦٢-٦٣) ، وكقوله تعالى : **(إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ..)** (آل عمران ٥٥) ولم يقل (ابن مريم) لدلالة السياق على عبوديته فى قوله تعالى (متوفيك) فكيف يكون إلها وقد توفى ؟! .. وكقوله تعالى **(وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم)** (آل عمران ٨٤) فذكر عيسى معدودا ضمن الأنبياء والمرسلين فأخذ حكمهم وصفتهم .

وكثيرا ما يـأتى هذا الوصـف التـأكيدى فـى مقـام الحديـث عـن الشـرك والمشركين والكافرين ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْـنِ ، إِنَّمَـا هُـوَ إِلَـٰهٌ واحِـدٌ ، فَـإِيَّىَ فَارْهَبُونِ)) النحل (٥١)

فالمفرد والمثنى معدودان ، لا يحتاجان إلى دلالة علـى عددهمـا ، وإنمـا مازاد عن الاثنين فهو يحتاج إلى بيان فى العدد ، فـأقول : عنـدى كتـب سـبعة ، فتحدد بذلك عدد الكتب . قال الزمخشرى : إن قلـت مـا فـائدة قولـه (اثنيـن) مـع إغناء التثنية عن ذلك ؟ قلت : الاسـم الحـامل لمعنـى الإفـراد والتثنيـة دال علـى شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص ، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنــى به منهما ، والذى يساق إليه الحديث هو العـدد شـفع بمـا يؤكـده ، فـدل بـه علـى القصد إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحـد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية[1].

ومن ذلك ـ أيضا ـ ما ذكر فى مقام الوحى والتبليغ فى قوله تعالى :

((قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُم إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ)) الأنبياء (١٠٨)

وقد يأتى الوصف بالعدد واحد لبيان التعجب والسخرية ، كمـا فـى قولـه تعالى :

((أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا واحِدًا ، إِنَّ هذا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ)) ص (٥)

---

[1] الكشاف ٢/٦١٠

فقالوها على سبيل النفى والإنكار والتعجب ، وقد زاد من بيان ذلك تصدير الآية بالاستفهام الدال على التعجب والإنكار أيضا .

وقد جاء العدد **(واحد)** مُبيِّنا ومؤكدا لحقيقة معينة فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم ، منها : قوله تعالى :

((وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) الرعد (٤)

فوصف القطع بأنها (متجاورات) يجاور بعضها بعضا فى تلاصق وتلاحم ، ثم تنتج ثمرا مختلفا على الرغم من التجاور وعلى الرغم من شربها ماء **(واحد)** ، فوصف الماء هنا بأنه واحد لبيان قدرة الله والدلالة عليها . وفى ختام الآية الكريمة بالوصف **(يعقلون)** ليتناسب بلاغيا مع موضوع الآية التى تدعوا إلى التفكير والتدبير فى مظاهر قدرة الله ، فيكون ذلك سبيلا للإيمان .

*** أمة واحدة**

الأمة : الدين كما قال[1] ابن قتيبة ، ومنه : **(إنا وجدنا آباءنا على أمة)** (الزخرف ٢٢) أى على دين كأنه قال : إن هذا دينكم دين واحد لا خلاف بين الأمم المختلفة فى التوحيد ، ولا يخرج عن ذلك إلا الكفرة المشركون بالله . وقيل : إن هذه الشريعة التى بينتها لكم فى كتابكم شريعة واحدة . وقيل : المعنى : إن هذه ملتكم ملة واحدة ، وهى ملة الإسلام[2] .

---

(١) قد تأتى (أ مة) فى بعض المواضع بمعنى (جماعة) كقوله تعالى : **(من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله)** (آل عمران ١١٣) ، وكقوله تعالى : (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم) (الأعراف ١٦٤) وقد تأتى (أمة) بمعنى وقت أو أجل كقوله تعالى : (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه) (هود ٨) .

(٢) فتح القدير ٥٨١/٣

.. وبناء على ما تقدم ، فإن وصف **(أمة)** بـ **(واحدة)** يـأتي للتأكيد علـى أن الدين واحد ، ولهذا فإن هذا الوصف (واحدة) لكلمـة (أمـة) يـأتي فـي سياق الحديث عن الفرقة في الدين واختلاف الكافرين على دين الله ، ومثـال ذلـك مـا جاء فى قوله تعالى :

((وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا)) يونس (١٩)

أى كانوا على دين واحد ، فتفرقوا إلى فرق وأحزاب و قوله تعالى :

((إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاعْبُدُون . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بينـهم كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُون)) الأنبياء (٩٢-٩٣)

فذكر وحدة الدين **(أمة واحدة)** فى معرض الكـلام عـن القطـع المتفرقـة فى الدين : **(وتقطَّعوا أَمْرَهُم بَيْنَهُم)** . ومن ذلك ـ أيضا ـ قوله تعالى :

((إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدةً وَأَنَا رَبُّكُم فَاتَّقُون.فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَـهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)) المؤمنون (٥٢-٥٣)

فقال فى آية (الأنبياء) **(فاعبدون)** لأنه خطاب لسائر الخلـق ، أو للكفـار ، فناسب أمرهم بالعبادة والتوحيد ودين الحق . وقال فى (المؤمنون) **(فاتقون)** لأنـه خطاب للرسل ، أو للنبى ﷺ والمؤمنون فناسب الأمر بالتقوى .. ، وأما قوله : (وتقطعوا) **بالواو** (فى الأنبياء) لأن التقطـع قد كـان منـهم قبل هـذا القـول لـهم ، وقوله : (فتقطعوا) **بالفاء** فى (المؤمنون) ، أى ظهر منهم التقطع بعد هذا القول ، والمراد أممهم[1].

---

[1] أسرار التكرار فى القرآن ص١٤٣، وانظر – أيضا – كشف المعانى ص٢٥٨

ومن المواضع التى ذكرت الأمة فيها موصوفة بـ **(واحدة)** للتأكد على وحدة الدين وتوحيد العقيدة فى سياق الحديث عن الكافرين ما جاء فى قوله تعالى :

((وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)) الزخرف (٣٣)

ومما جاء موصوفا بالعدد **واحد** ، قوله تعالى :

((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)) الفرقان (٣٢)

فكلمة : (جملة) ووصفها بالتضاد (واحدة) دل على تناقضهم مع الحق وتعنتهم فيما لا طائل من ورائه ، لأن ما طلبوه لا يخرج القرآن عن كونه معجزا ، وهم قد طلبوا نزول القرآن دفعة واحدة لزعمهم أن الكتب السابقة نزلت هكذا ، وقد كذبوا فى ذلك وجهلوا حقيقة نزول الكتب .

وقوله تعالى :
((إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)) ص (٢٣)

فوصف النعجة بواحدة فى سياق (تسع وتسعون نعجة) لإرادة بيان حالة الضعف والتأكيد على الظلم الواقع من جانب القائل .

* وقد يأتى الوصف بالعدد **واحد** لبيان شدة الموقف وهوله ، والتأكيد على عِظمه ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى :

((وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً)) النساء (١٠٢)

فالتعبير بالمفعول المطلق **(ميلة)** وبيانه بالوصف **(واحدة)** أبرز حقد الكافرين الدفين فى نفوسهم ورغبتهم فى شدة الانتقام ، حتى تكون ميلة واحدة قاصمة .

ومن هذا النوع ـ أيضا ـ ما جاء فى قوله تعالى :

((إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ)) يس (٢٩)

((مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُم وَهُم يَخِصِّمُون)) يس (٤٩)

((إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُون)) يس (٥٣)

فوصف الصيحة بأنها واحدة تدل على شدتها فلا يُحتاج إلى ثانية لكفاية الصيحة الواحدة فى القضاء على الخلق (آية ٢٩) أو فى بعثهم (آية ٥٣) . وقد أتت كلها فى سياق أسلوب التوكيد عن طريق النفى والاستثناء لقطع الطريق على المنكرين والمكذبين .

وقد يأتى التعبير عن البعث بعد الموت **بالزجرة الواحدة** لبيان شدتها وقوتها ، كما فى قوله تعالى :

((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم يَنظُرُون)) الصافات (١٩)

وقوله تعالى :

((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ)) النازعات (١٣)

وقد أجمع المفسرون على أنها النفخة الثانية ! وقد جاء التعبير عن النفخة الثانية بالصيحة كما فى آية (يس ٥٣) ، ولعل المراد بالزجرة الواحدة : أى الدفعة الواحدة للخلائق ليساقوا إلى أرض المحشر ، فتكون الصيحة شيئا ، والزجرة شيئا آخر . والله تعالى أعلم .

ومن هذا الوصف - أيضا - قوله تعالى :

((فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ..)) الحاقة (١٣)

((وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً)) الحاقة (١٤)

فالوصف بـ **(واحدة)** فى النفخة والدكة يبين مدى شدتها وهولها .. وقد بنى الفعل للمجهول فى كلا المشهدين ، وكذا كل مشاهد القيامة .. "فما سر ظاهرة الاستغناء عن ذكر الفاعل فى أحداث يوم القيامة ؟ يهدينا البيان القرآنى إلى أن أساليب البناء للمجهول ، والمطاوعة ، والإسناد المجازى ، تلتقى جميعا فى الاستغناء عن ذكر الفاعل ، وإن كان لكل أسلوب منها ملحظه البيانى الخاص ، يجلوه استقراء مواضعه فى الكتاب المحكم ..

اطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث والقيامة ، ينبه إلى أسرار بيانه وراء ضوابط الصنعة البلاغية وإجراءات الإعراب الشكلية .. فبناء الفاعل للمجهول ، فيه تركيز الاهتمام على الحدث ، بصرف النظر عن محدثه"[١].

وقد تأتى الصفة لبيان الشئ وتحديده بذاته ، فتتميز بصورة حاضرة فى الذهن ، فلا ينصرف إلى غيره ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى :

---

[١] الإعجاز البيانى للقرآن ص٢٤٢

((..يَوْمَ الحَجِ الأَكْبَرِ ..)) التوبة (٣)

فقد وصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، وقد يراد به يوم عرفه ، لأنه إذا فات فات الحج ، وقد يراد به يوم النحر ، لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج ، فهو الحج الأكبر[1].

وقوله تعالى :

((يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ..)) التحريم (٨)

فالوصف **(نصوحا)** حدد شروط التوبة حتى تقبل أى صادقة .

ووصف الفلك بالمشحون ليبين مدى ازدحامه ، فقال :

((إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)) الصافات (١٤٠)

وبين نوع الشجرة التى أنبتت على نبى الله يونس عن طريق الوصف فقال :

((وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ[2])) الصافات (١٤٦)

وقد يأتى الوصف لبيان الضعف وطلب الترحم والاستعطاف كما فى قوله تعالى :

---

[1] الكشاف ٢ / ٢٤٥

[2] هى شجرة القرع كما قال جمهور المفسرين وخصها بالذكر لأنها باردة الظل ولا يجتمع عندها الذباب ، كما تكون سريعة النبات . انظر (تيسير الكريم الرحمن ص٧٧٧)

((قَالُوا يَأَيُّها الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ))
يوسف (٧٨)

وكقوله تعالى :

((قَالَتَا لا نَسْقِى حَتَّى يُصدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)) القصص (٢٣)

وأتى الوصف لبيان الكرم ، كما فى قوله تعالى :

((وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلامًا ، قَالَ سَلامٌ . فما لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)) هود (٦٩)

وقوله تعالى :

((فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)) الذاريات (٢٦)

فقد يكون وصفه بحنيذ فى (هود) لبيان حالة إعداده وإنضاجه ، فكان يشوى على الحجارة المحماة على النار .. ووصفه بـ (سمين) فى الذاريات لبيان حالته الصحية وبُعده عن الهزال وخلافه والله أعلم.

وقوله تعالى فى وصف العجل بالجسد :

((واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مَن بَعْدِه مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ..))
الأعراف (١٤٨)

وكذا فى سورة طه :

((فَأَخْرَجَ لَهُم عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ..)) الآية (٨٨)

ويجوز أن ينتصب **(جسدا)** على البدلية وعلى الوصيفة ، فتكون صفة العجل جسد بمعنى الجثة فقط ، قال ابن الأنبارى : "ذكر الجسد دلالة على عدم الروح منه ، وأن شخصه شخص مثال وصورة ، غير منضم إليها روح ولا نفس "[1]. وجملة (له خوار) وقعت صفة لتبين هيئة من هيئات هذا العجل ، وهى هنا هيئة صوتية إذ له صياح من أثر دخول الريح فيه .

وقد قامت الصفة أيضا ببيان حالة القوم فى قوله تعالى :

((حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا)) الكهف (٩٣)

(قوما لا يكادون يفقهون قولا) فظهرت صفتهم فى عدم فهمهم لغة غيرهم ، فهم لا يفهمون عن غيرهم ولا يفهمون غيرهم ، لأنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم[2]

وكثيرا ما يأتى وصف السماء بالدنيا لتحديدها عن باقى السموات ، كما فى قوله تعالى :

((ولقد زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيَا بِمَصَابِيحَ ..)) الملك (٥)

وتأتى الصفة – أيضا – لتبيّن منافع الشئ ومزيته ، كما فى قوله تعالى :

((وهو الَّذِى سَخَّرَ البَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنهُ لَحْمًا طَرِيًّا وتَسْتَخْرِجُوا مِنهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ..)) النحل (١٤)

---

[1] فتح القدير ٢ / ٣٥٢

[2] نفسه ٣ /٤٢٩

ففى وصف اللحم بأنه (طريا) بيان لمزيته الصحية وهضمه .. ثم بين صفة الحلية المستخرجة بـ **(تلبسونها)** ، وقد وصف اللباس فى مواضع أخرى بقوله :

((يَابَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا))
الأعراف (٢٦)

فوصف خاصية اللباس بأنه (يوارى) السوآت ويستر العورات .

* * *

الفصل الثالث

التخلـص

عرف العرب فى جاهليتهم التخلص من معنى إلى معنى ، وإن كانوا فى ذلك يذكرون : دع عنك ، أو سل عنك الهم بكذا ، وهو ما أجاد فيه الشعراء بعد ذلك ، فلا يكاد يشعر به السامع حتى يجد نفسه فى معنى آخر .. وهو فن رائق يدل على مهارة المبدعين ، وقد عرفه ابـن الأثير بقولـه : هـو أن يـأخذ مؤلـف الكلام فى معنى من المعانى فبينما هو فيه إذ أخذ فـى معنـى آخر غيره وجعل الأول سببا إليه ، فيكون بعضه آخذا برقاب بعض ، من غير أن يقطـع كلامه ، ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغا" [1].

والتخلص معـروف فـى النثر ، يلجأ إليـه الكـاتب ليخـرج مقدمتـه إلـى غرضه ومعاينه المتعددة فيجعل من أسلوبه سلاسة وانسيابا تأخذ برقاب الكـلام ، فيكون سبيلا لإثارة الانتباه وهو فى ذلك أيسر سبيلا من الشاعر الذى تحكمه القافية ويقيده الوزن ..

والقرآن الكريم نموذج فريد ، اشتمل على المعانى الجليلـة المتعـددة فـى تخلص عجيب معجز لا يعرف التقليد ، على الرغم من معرفة العرب بهذا الفن وممارستهم له ..

* التخلص من الوعد إلى الوعيد

وهـو مجـال عظيـم واسـع فـى القرآن الكريـم لاشـتماله علـى وعـد الله للمؤمنين بالجنة والجزاء الحسن والتذكرة بالآخرة والترغيب فى رضوان الله ، ثم يتبع ذلك بالوعيد بالنار للكافرين والجاحدين والترهيب من عذاب الله ، وقد جاء ذلك فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى :

[1] ابن الأثير – المثل السائر – تحقيق – محمد محى الدين عبد الحميد – المكتبة العصرية – بيروت –١٩٩٥–٢/٢٤٤

((مثَلُ الذين ينفقُونَ أموالَهُمْ فى سَبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سَنَابلَ فى كُلِّ سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمـَن يشاء والله واسع عليم . الذين يُنفقون أموالَهم فى سبيلِ اللهِ ثمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أنفقُوا مَنـاً ولا أذىً لَهُمْ أجْرُهُم عندَ ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنُون . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقةٍ يتبعَها أذىً واللهُ غنيٌّ حَلِيمٌ . يأيُّها الذين آمنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكم بالمَنِّ والأذى كالذى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ الناسِ ولا يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ. فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأصَابَـه وَابِلٌ فتركَهُ صَلْداً ، لا يقدِرُون على شَئٍ مِّمَّا كَسَبُوا ، واللهُ لا يَهْدِى القَوْمَ الكافرين . وَمَثَلُ الذينَ يُنفقونَ أمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وتَثْبِيتاً مِّنْ أنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ..)) البقرة (٢٦١-٢٦٥)

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على موقفين للمنفقين ، وقد بدأت الآيات بتمثيل ما ينفقه المؤمنين بالجنة التى تضاعفت ثمارها بسبعمائة ضعف ، ثم يضاعف لمن يشاء ، ثم كان التخلص الرائق إلى الحديث عن المنفقين الذين يؤذون الفقراء :

((الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى))

فتخلص من الحديث عن المؤمنين المنفقين إلى الحديث عن المنفقين الذين يؤذون الفقراء وذلك فى لمس لطيف **(ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى)** ، ثم شرع فى التفصيل وبيان الوعيد : **(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ...)**

ومن البلاغة الرائقة فى الآيات ، أن يقع التخلص مرة ثانية فيأتى الحديث عن المنفقين المخلصين فى تمثيل صدقاتهم بجنة بربوة ، بعد أن مثل إنفاق الآخرين بصفوان عليه تراب ، فكان كالنسيج المتماوج يأتى فى صورة

تقابلية يـبرز المعنـى فـى مشـهد حـى ينبـض بالحركـة والحيـاة ، فـنرى الوابـل ونسمعه وهو يضرب الصفوان - الحجر الأملس - بمائه فينـزل ما علق به من تراب فيتركه خاويا ، كمثل المنفق رئاء الناس لا يبقى له شئ عند الله ، ثـم بعـد الجدب والصخر إلى الجنة الوارفة التى تضاعف ثمرها ، كتضاعف أجر إنفاق المخلصين .

ومن موضوع الإنفاق وما فيه من تخلص من الإخلاص إلى الرياء كـان التخلص إلى موضوع آخر يتعلق بالمال ، وهو (الربا) وذلك فى قوله تعالى :

((الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إلا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ...)) البقرة (٢٧٤-٢٧٥)

وقوله تعالى :

((وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وأولئكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ، فَأَمَّا الذينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُم فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ . وأَمَّا الذينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ))
آل عمران (١٠٤-١٠٨)

فبعد أن ذكر المولى عز وجل - جماعة المؤمنين الدعاة ، جاء التخلـص إلى ذكر نقيضهم بنفس النسيج اللغوى فى قوله : **(ولتكن)** فقال : **(ولا تكونوا)** ، ثم التخلص إلى ذكر مشاهد القيامة **(يوم تبيض وجوه ...)**

ومن لطيف التخلص إلى مشاهد القيامة أن جاء قولــه تعـالى قبل ذلـك : **(وأولئك لهم عذاب عظيم)** فكان بمثابة التوطئة والتهيئة لاستقبال المشهد .

ومن ذلك التخلص ما جاء في قوله تعالى :

((يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عنها أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) الأعراف (٣٥-٣٦)

فجاء ذكر الرسل أولا بخطاب العموم المناسب للرسالات : **(يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم)** ثم تخلص إلى **مهمة الرسل** **(يقصون عليكم آيتى)** ثم تخلص **بتقسيم الناس** إزاء الرسالات إلى فريقين وبيان جزائهما **(فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)** - **(والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)** .

ثم بعد ذلك جاء التخلص إلى ذكر أهل النار ساعة وفاتهم ، وساعة دخولهم النار ، وتفصيل مشهد الملاعنة فيما بينهم .. ثم مقابلة ذلك بمشهد أهل الجنة ، ومشهد آخر في حوار بين أهل النار وأهل الجنة .. يقول تعالى :

((فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ ..)) الأعراف (٣٧)

((قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ...)) الأعراف (٣٨)

((لَهُم مِن جَهَنَّم مِهادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ،وكَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمينَ . والَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكلِّفُ نفْسًا إلاّ وُسْعَهَا أولئكَ أصْحَابُ الجَنَّةِ هُم فيها خَالِدُونَ ...)) الأعراف (٤١-٤٥)

((ونَادَى أصْحَابُ الجَنَّةِ أصْحَابَ النَّارِ أن قَدْ وَجَدْنَا ..)) الأعراف (٤٤)

((ونَادَى أصْحَابُ النَّارِ أصْحَابَ الجَنَّـةِ أنْ أفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالُوا إنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا على الكافِرِينَ)) الأعراف (٥٠)

وفى مشـهد المقابلـة بين أهل الجنـة بوجوهـهم المشـرقة ، وأهل النـار بوجوههم المظلمة ، جاء التخلص من ذكر أهل النار إلى عرض مشـهدهم يـوم الحشر ، يقول تعالى :

((لِلَّذِينَ أحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُم قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ ، أولئكَ أصحابُ الجَنَّةِ هم فيهَا خَالِدُونَ . والذينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ مثلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّالَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الليلِ مُظلِمًا ، أولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خَالِدُونَ . ويَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ للذينَ أشرَكُوا مَكَانَكم أنتم وشُرَكَاؤكم ، فَزَيَّلنَا بَيْنَهُم ، وقَالَ شُرَكَاؤهُم مَّا كُنتُمْ إيَّانَا تَعْبُدُونَ)) يونس (٢٦-٢٨)

ومن بديع التخلص فى هـذه الآيـات الكريمـة ، أن جـاء عـرض نعـم الله ومظاهر قدرته بعد الحديث عـن أهل النـار .. وعلاقتـها بمـا سـبق أنـها تحمـل الزجر لأهل النار والتبكيت على كفرهم ، أى كيـف يكفـرون بـالله وهـذه دلائـل قدرته ونعمه عليهم ؟! يقول تعالى :

((قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ...)) يونس (٣١)

((قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، قُلِ اللهُ يَبْدأُ الخَلْـقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِى إلى الحَقِّ ، قُلِ اللهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ...)) يونس (٣٤-٣٥)

.. فما زال عرض مشاهد التوبيخ والزجر لهم ، حتى انتهى المشهد إلـى تصوير حسرة هؤلاء وندمهم :

((وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ ، وَأَسَرُّوا النَّدامَـةَ لَمَّا رَأَوُا العَذَابَ ، وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِالقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ)) يونس (٥٤)

ومن بديع التخلص ما جاء فى ذكر موسى ﷺ ورسـالته إلـى فرعـون ، ثم ذم فرعون وذكر ما ينتظره من وعيد ، يقول تعالى :

((وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بَآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ . يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّـارَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ ..)) هود (٩٦-٩٨)

وقوله تعالى بعد هذا العرض : **(ذلك من أنبـاء القرى نقصـه عليـك ..)** فقد جاء ذكر العديد من هلاك القرى التـى ورد ذكرهـا مـن أول هـذه السـورة ، كقوم نوح وهود وثمود ولوط ومدين وفرعون ، ولذلك جاء قوله تعالى :

((وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِىَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّـهُ النَّـاسُ وذَلـكَ يَوْمٌ

مَشْهُودٌ . وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِـهِ فَمِنْـهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)) هود (١٠٢-١٠٣)

فالآيات تتقابل فى تناسق بليغ ، تنساب انسياب الماء ، فلا فصل بينـها .. فهذا هو أخذ الله للقرى الظالمة ، وهذا الأخذ آية من آيات الله تعالى ، وهذه الآية يفيد منها من يخشى الآخرة التى يجتمع لها الناس فى يوم مشـهود ، فيـه الشـقى والسعيد ...... فلا نشعر أننا انتقلنا من موضوع إلى موضوع ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم .

وكثيرا ما يأتى التخلص من ذكر أهل الجنة والنـار إلـى عـرض مشـاهد القيامة ، كقوله تعالى :

((وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَـاوِينَ وَقِيلَ لَـهُمْ أَيْـنَ مَـا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ ...)) الشعراء (٩٠-٩٢) .

فجاء ذكر الجنة والنار ببنـاء الفعل للمجـهول لجمـع شـتات الذهـن إلـى أصل المشهد من جنة أو نار ، فلا يدخل فاصل من شأنه أن يصـرف الذهـن أو يقلل الانتباه ، ثم جاء عرض مشهد القيامة : **(وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله ..)**

وربما جاءت التوطئـة بذكـر فضـل الله ليكـون التفصيـل والحديـث عـن الجنة وأهلها ، كقوله تعالى :

((ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَـابَ الَّذِيـنَ اصْطَفَيْنَـا مِـنْ عِبَادِنَـا ، فَمِنْـهُمْ ظَـالِمٌ لِّنَفْسِـهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْـهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ . ذَلِـكَ الْفَضْـلُ الْكَبِـيرُ . جَنَّـاتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيـرٌ ...)) فاطر (٣٢-٣٣)

فقال : **(الذين اصطفينا)** على سبيل الإجمال ولفت الانتباه ثم التفصيل بالظالم ، والمقتصد ، والسابق ثم مهد بالفضل الكبير ، ففسره بـ **(جنات عدن)** ، وانتقلت الآيات لتشرح نعيم أهل الجنة ثم التخلص بعد هذه الآيات إلى ذكر أهل النار وأحوالهم واصطراخهم : **(الذى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ.والذينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ)** ..

ومن لطيف التوطئة والتهيؤ للانتقال ، ذكر نفى النصب - العناء والتعب - واللغوب (الإعياء من التعب) لأهل الجنة ، فكان بمثابة إثباتها - ضمنا - لأهل النار ، فجاءت الآية بعدها : **(والذين كفروا لهم نار جهنم ...)** .

وقوله تعالى :
((إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .لِمِثْلِ هذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ . أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ . إِنَّا جَعَلْنَاهَا فتنةً للظَّالِمِينَ)) الصافات (٦٠-٦٣)

قال الزركشى : وهذا من بديع التخلص ، فإنه سبحانه خلص من وصف المخلصين وما أعد لهم ، إلى وصف الظالمين وما أعد لهم [1] وقد جاء التخلص فى آية : (أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم) فجمع بين طرفى الآية المتضادين : الخير وشجرة الزقوم برابط (أم) والاستفهام بالهمزة المفيد لتقرير اختيار خير النزل ، فصار الكلام جاريا فى انسياب .

(1) البرهان فى علوم القرآن ٤٤/١

وتستهل سورة الواقعة آياتها بذكر مشاهد القيامة من خفض ورفـع ورج للأرض وبس للجبال ، ثم يتخلص المشهد مـن ذكر هذه الأحداث إلـى إجمـال الخلائق فى أصناف ثلاثة :

((وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَـةً . فَأَصْحَـابُ الْمَيْمَنَـةِ مَـا أَصْحَـابُ الْمَيْمَنَـةِ . وأصحـابُ الْمَشْـأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْـأَمَةِ . والسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ . أولئـكَ الْمُقَرَّبُونَ فى جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ...)) الواقعة (٧-١٥)

فجاء التفصيـل بعد الإجمـال : فأصحـاب الميمنـة ... ثـم جـاء التخلـص الرائق فى ذكر نعيم السابقين ثم بعده فى ذكر نعيم أصحاب اليمين ، ثم أصحاب الشمال ، وجاء التخلص البديع من ذكر عذاب الكافرين إلى الحديـث عن قـدرة الله تعالى وما كان ينبغى من شكره لا كفره ، فيقول تعالى :

((هَذَا نُزُلُـهُم يَوْمَ الدِّينِ . نَحْنُ خَلَقْنَـاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ . أَفَرَأَيْتُم مَّـا تُمْنُونَ ...)) الواقعة (٥٦-٥٨)

فكان التذكير بقدرة الله على خلقهم فكيف لا يؤمنون ولا يصدقون ، وقـد ناسب ذلك التخلص إلى الحديث عما يمنونه هل هم بذلك خالقون ؟!

وربما جاء التخلص من علامة مـن علامـات السـاعة إلـى الحديـث عـن أهوالها ، كما فى قوله تعالى :

((وإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُون . يَومَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًـا مِّمَّـن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَـا فَـهُمْ

يوزعون . حتى إذا جاءو قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون)) النحل (٨٢-٨٤)

دابة فى الأرض تكلمهم ، وهذا فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق [1] فهذه العلامة من علامات الساعة الكبرى ، فناسب التخلص للحديث عن الساعة ذاتها بقوله **(ويوم نحشر من كل أمة ...)** .

* التخلص فى آيات قدرة الله وصفاته

تأتى الآيات التى تتحدث عن قدرة الله تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وفى مقامات مختلفة ، قد تهيأت فيها النفس إلى استقبال هذا الحديث بصفة خاصة ، ومن ذلك قوله تعالى :

((كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير . يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور)) الحج (٤-٧)

فالشيطان يقوم بالغواية والتضليل ليوقع جنده وأتباعه فى عذاب السعير . فناسب ذلك التخلص إلى الحديث عما يزيل هذا التضليل والتشكيك ، وهو الحديث عن كيفية خلق الإنسان ومراحل خلقه ، ثم التخلص للحديث من نفس

---

[1] ابن كثير ٦٨٢/٢

هذا النسيج عن إحياء الأرض الهامدة وهذا الحديث عـن إحيـاء الموتـى يناسبه الحديث عن البعث والنشور : **(وأن الساعة آتية ..)** .

ومن أحسن أمثلته قوله تعالى :

((اللهُ نُورُ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ ، مَثَلُ نُـورِه كَمِشْـكَاةٍ فِيـهَا مِصْبَـاحٌ المِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَـةُ كَأنـها كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرةٍ مُّبارَكَـةٍ زَيتُونةٍ لا شَرقيةٍ ولا غَرْبيَّةٍ يكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْه نَـارٌ ، نُورٌ عَلَـى نورٍ يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَـاءُ ، ويَضْرِبُ اللهُ الأمثَـالَ للنَّـاسِ واللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)) النور (٣٥)

فقد اشتملت الآية على خمسة تخلصـات ، وذلـك أنـه جـاء بصفـة النـور وتمثيله ، ثم تخلص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها ، ثم رجع إلـى ذكـر النـور والزيت يستمد منه ، ثم تخلص منه إلى ذكر الشجرة ، ثم تخلص من ذكرها إلى صفة الزيت ، ثم تخلص من صفة الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلص منه إلى نعم الله بالهدى على من يشاء [1].

ومن ذلك ـ أيضا ـ قوله تعالى :

((قَالَ أَفَرأيتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَ آبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإِنَّـهُمْ عَدُوٌّ لِّى إِلَّا رَبَّ العالَمِينَ . الذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . والذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ . وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ والذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ...)) الشعراء (٧٥-٨١)

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ٤٣/١

فجاء التخلص من ذكر إبراهيم عليه السلام لأحوال قومه من عبادتهم للأصنام إلى ذكر صفات الله ، وكان هذا الانتقال عن طريق قوله تعالى : **(فإنهم عدو لى إلا رب العالمين)** ، وهو ما يعرف بالاستثناء المنقطع .

ومن ذلك – أيضا – قوله تعالى :

((وَجدتُّها وقَوْمَها يَسْجُدُونَ للشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ أَعْمَالَهُم فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . ألا يَسْجُدُوا لِلهِ الذى يُخْرِجُ الْخَبْءَ فى السَّموَاتِ والأرضِ ويَعْلَمُ ما تُخفُونَ وما تُعْلِنُونَ . اللهُ لا إلَهَ إلا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيم)) النمل (٢٤-٢٦)

فجاء الانتقال من الكلام عن عبادة بلقيس وقومها للشمس إلى أحقية الله وحده فى العبادة ، وذكر دلائل هذا الاستحقاق عن طريق ذكر صفات الله تعالى ، فهو الذى يخرج ما خفى فى السموات والأرض ، ويعلم السر وهو رب العرش العظيم .

وكان قوله : **(فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون)** بمثابة التوطئة للانتقال ، وإعلان السبيل الحق وطريق الهداية ، وكان من بديع أسلوب التخلص قوله **(ألا)** ففيها لفت للانتباه مع ما يحمله من توبيخ .

ومن ذلك قوله تعالى :

((ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأخْرَجْنَا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً ألْوَانُهَا ، ومِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وغَرَابِيبُ سُودٌ . ومِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ والأنْعَامِ مُخْتَلِفٌ ألْوَانُه كذلِكَ ، إنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلماءُ ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)) فاطر (٢٧-٢٨)

فقد بدأ المشهد الحى المتحرك بمخاطبة حاسة البصر والبصيرة : (ألم تر) ليرى الإنسان القدرة الإلهية المتفردة والألوان المشتركة بين الكائنات والناس . فالمشهد زاخر بالعديد من الأجزاء المترابطة النسيج والغرض ، وإن كانت مختلفة الأجناس والأنواع "إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف الأرض كلها نتبع فيها الألوان والأصباغ فى كل عوالمها . فى الثمرات وفى الجبال و فى الناس وفى الدواب والأنعام . لفتة تجمع فى كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء فى هذه الأرض جميعا .. وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان .. وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة فى ظاهرها ، ولكن فى ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزا ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالى العالى"[1].

وقد جاء التخلص من ذكر عذاب الكافرين إلى ذكر صفات الله تعالى فى قوله :

((سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ . مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ . تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ))
المعارج (١-٤)

أى هذا العذاب يقع بالكافرين ، لا يدفعه أحد لأنه من الله . (الله ذى المعارج) فهو تخلص لطيف يبرز صورة صدور العذاب من الله ، فيزيده تهويلا وتفزيعا .

---

(١) الظلال ٥/٢٩٤٢

وتتفق بداية هذه السورة الكريمة التي يذكر فيها العذاب مع خاتمة السورة قبلها ، وهي سورة الحاقة ، وما اشتملت عليه من ذكر للمكذبين والكافرين مع كونه الحق اليقين ، فيقول تعالى :

((وإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ . وإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ . وإِنَّــه لَحَقُّ اليَقِينِ فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ)) الحاقة (٤٩-٥٢)

فهاهم أولاء المكذبون والكافرون فى خاتمة سورة (الحاقـة) ، وهذا هو وعيدهم بالعذاب الواقع فى بداية سورة (المعارج) التى بدأت بـ (سأل) وتسمى – أيضا – سورة سأل . "وكان السائل عن شئ يدل على أن السائل ما فهمه حق فهمه ، ولا اتصف بحقيقة علمه ، وعجب فى أول هذه السورة ممن سأل عنها فقال : (سأل) ودل على أنه لو لم يسأل عنها إلا واحد من العباد لكان جديرا بالتعجب منه والإنكار عليه بالإفراد فى قوله : (سأل)"[1].

وكثيرا ما يأتى الحديث عن قدرة الله تعالى بعد التخلص من الحديث عن المكذبين ، ليكون زجرا لهم وتقريعا ، ومن ذلك قوله تعالى :

((أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . كَذَلِكَ نفعَلُ بالمُجْرِمِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نخلقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فى قَرَارٍ مَّكِينٍ . إلى قَدَرٍ مَّعلُوم . فقدرنَا فنعمَ القَادِرُونَ . وَيْلٌ يومئذٍ لِّلمكذِّبِينَ . ألم نَجْعَلِ الأرْضَ كِفَاتاً . أَحْيَاءً وَأمْوَاتاً . وَجَعَلْنَا فيها رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وأَسْقيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً))
المرسلات (١٦-٢٧)

---

[1] نظم الدرر ١٤٤/٨

فذكر إهلاك المجرمين وإفنائهم ، ثم ذكر كيفية البدء والخلق ، ثم ذكر الأرض وما جعل فيها من مظاهر قدرته ، وفي كل مرحلة يتم الانتقال منها بواسطة : **(ويل يومئذ للمكذبين)** ، أى : كيف تكذبون وقد أهلكنا وخلقنا وجعلنا فى الأرض كفايتكم والجبال الرواسى الشامخة والماء الفرات ، فصارت كلها نسيجا واحدا لا يفصل بينها فاصل ، بل تسير الموضوعات فى ترابط شعورى رقيق .

ومن ذلك قوله تعالى :

((فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى . أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . و الأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولأنعامكم)) النازعات (٢٥-٣٢)

فالآيات تتراص فى تجاور بديع .. فقد أخذ الله فرعون بسبب استعلائه وكفره ، أى كان كفره سببا فى أخذ الله له بالنكال فى الدنيا والآخرة .. ولأن هذه القصة يجرى من ورائها غرض العظة والعبرة ، كان الانتقال والتخلص بقوله : **(إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى)** ، وهو "انتقال من الاعتبار بأمثالهم عن الأمم إلى إبطال شبهتهم على نفى البعث ، وإذ قد فرضوا استحالة عود الحياة إلى الأجسام البالية إذ مثلوها بأجساد أنفسهم إذ قالوا : **(أئنا لمردودون فى الحافرة)** (النازعات ١٠) جاء إبطال شبهتهم بقياس خلق أجسادهم على خلق السماوات والأرض فقيل لهم **(أأنتم أشد خلقا أم السماء)** ، فذلك قيل لهم هنا أأنتم بضميرهم ولم يقل : أالإنسان أشد خلقا ، وما هم إلا من الإنسان وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب"[1]

---

[1] التحرير والتنوير ٣٠ ، ٨٣

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

((قُتِلَ الإنسَانُ مَا أكفَرَهُ . مِنْ أيِّ شَئٍ خَلَقَهُ . مِن نُّطفَةٍ خَلَقَهُ فقدَّرَهُ . ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ . ثُمَّ أمَاتَهُ فَأقبَرَهُ . ثم إذا شَاءَ أنشَرَهُ . كَلاَّ لَمَّا يَقضِ مَا أمَرَهُ . فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إلى طَعَامِـهِ . أنَّا صَبَبنَـا المَـاءَ صَبًّا ثُمَّ شَـقَقنَا الأرضَ شَـقاً . فَأنبَتنَا فيها حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً . وَزَيتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْباً . وَفَاكِهَةً وَأبّـاً . مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ)) عبس (١٧-٣٢)

(ما أكفره) صيغة تعجبية فيها دلالة على شدة غضب الرحمن ، ما الذى جعلـه يكفر ، **(من أى شئ خلقه)** ، وهو استفهام للتقرير والتوبيخ ، فكـان التخلص اللطيف ، فشرع فى إقامة الأدلة على خلق الإنسان ومراحل نموه من نطفة إلى إيجاده مقدرا ، "ولما كانت مدة البرزخ طويلـة ، وكـان البعث أمرا محققا غير معلوم الوقت بالعين بغيره تعالى ، عبر عن المعـانى الثلاثـة بـأداتى التراخي والتحقيق ، فقـال : **(ثم إذا شـاء)** أى إنشـاره **(أنشره)** أى بعثـه مـن قبره"(١).

*** <u>التخلص فى القصص القرآنى</u>**

اشتمل القرآن الكريم على الكثير من قصص الأمم السابقة وما وقع منهم وحدث لهم ، فهى تشتمل على الكثير من العظات والعبر التـى يستقيها المسلم ويستلهم أحداثها فى حياته .. ومما جاء من تخلص فـى قصـص القرآن الكريـم قول تعالى :

---

(١) نظم الدرر ٣٢٩/٨

((أَلَم تَرَ إلى الذِى حَاجَّ إبْرَاهيمَ فى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلكَ إذ قَالَ إبراهيمُ رَبِّىَ الذى يُحْيِ ويُميتُ قالَ أَنَا أُحْيِ وأُمِيتُ ، قالَ إبْرَاهيمُ فإنَّ اللهَ يأتِى بالشَّمسِ مِنَ المشرقِ فأْتِ بها من المغربِ فبُهِتَ الذى كَفَرَ ، واللهُ لا يهدِى القَوْمَ الظالمينَ . أَوْ كالذى مَرَّ على قريَةٍ وهِيَ خاويَةٌ على عُرُوشِها قالَ أنَّى يُحْيِ هذه اللهُ بعدَ مَوتِها ...)) البقرة (٢٥٨-٢٥٩)

عطف قصة على قصة ، مع أن شرط العطف المشاكلة ، فلا يحسن فى نظير الآية (ألم تر إلى ربك) – (أو كالذى) .

ووجه ما بينهما من المشابهة أن **(ألم تر)** بمنزلة : هل رأيت كالذى حاج إبراهيم ؟ وإنما كانت بمنزلها لأن (ألم تر) مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى ولذلك يجاب ببلى ، والاستفهام يعطى النفى ، إذ حقيقة المستفهم عنه غير ثابتة عند المستفهِم ، ومن ثم جاء حرف الاستفهام مكان حرف النفى ونفى النفى إيجاب ، فصار بمثابة "رأيت" غير أنه مقصود بالاستفهام ، ولم يمكن أن يؤتى بحرفه لوجوده فى اللفظ ، فلذلك أعطى معنى : هل رأيت [1]

ومن ذلك قوله تعالى :

((إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وآلَ إبْرَاهيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العالَمينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَميعٌ عَليمٌ . إذ قَالتِ امرأتُ عِمْرَانَ رَبِّ إنِّى نَذَرْتُ لكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فتقبَّلْ مِنِّى ، إنَّكَ أنتَ السَّميعُ العَليمُ . فلما وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَى واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ..))
آل عمران (٣٣-٣٦)

---

(1) البرهان فى علوم القرآن ٤٦/١

فذكر الله تعالى اصطفاءه لآدم ونوح وآل عمران على العالمين بهذا الإجمال ليكون توطئة للانتقال إلى قصة مريم وعيسى - عليهما السلام - ، وإذا كان ذكر الاصطفاء أولا تخلصا عاما ، تدرج إلى التخلص الخاص المباشر فى قوله : **(ذرية بعضها من بعض)** ، إيذانا بذكر بعض من ذرية آل عمران ، فكانت مريم ..

وكان من بديع التخلص أن انتقل الحديث القصصى إلى ذكر نبى الله زكريا - عليه السلام - انتقالا عجيبا ، وذلك فى قوله :

((.. كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ، قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ . هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ)) آل عمران (٣٧-٣٨)

فوجود هذا الرزق فى غير وقته عند مريم أمر عجيب فى ذلك الوقت ، ولكنه وُجد بفضل من الله مع استبعاده عقلا ، فكان هذا باعثا لزكريا - عليه السلام - أن يدعو بما هو مستبعد أو مستحيل عقلا بأن يرزقه الله ذرية طيبة (حيث بلغ من الكبر عتيا ، وكانت امرأته عاقرا) ، ولذلك جاء التعبير بقوله **(هنالك)** الدالة على البعد من لفظ (هناك) ودخول اللام .

فكان التخلص من هذا الرزق العجيب ، إلى ذلك الدعاء العجيب والاستجابة للاثنين بما يدل دلالة واحدة ، وهى قدرة الله تعالى .

.. والانتقال فى هذا الموضع من السورة يسير فى خط شعورى ومعنوى واحد ، فالآيات تتخلص من ذكر امرأة عمران وولادتها وما فيها من عجائب

قدرة الله ، إلى دعاء زكريا واستجابة الله لـه ، إلـى مريم مـرة أخـرى وعجيبـة العجائب وإعجاز الميلاد فى عيسى - عليه السلام - ، فقال جل شأنه :

((يا مَرْيَمُ اقْنُتى لِرَبِّكِ واسْجُدِى وارْكَعِى مَعَ الرَّاكِعينَ . ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ ، وما كنتَ لَدَيْهِم إذ يُلقُونَ أقلامَهُم أيُّهُم يكفُلُ مَرْيَمَ وما كُنتَ لدَيهِم إذ يختصِمُون . إذ قالَتِ الملائكةُ يا مريَمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ مِّنهُ اسْمُهُ المسيحُ عيسَى ابنُ مريَمَ وجيهًا فِى الدنيَا والآخِرَةِ ومن المُقَرَّبِينَ . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِينَ ...)) آل عمران (٤٣-٤٦)

فجاء التخلص من الحديث عن مريم إلى بشارتها بالمولود عيسى - عليه السلام - ثم التخلص الرائق بذكر صفاته : وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربيـن ، ويكلم الناس .. ومن الصالحين ثم التخلص مرة أخرى إلى مريم ووقـع الحدث عليها : **(قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ..)** .

.. ولا يكاد هذا المشهد الفريد أن ينتهى ، حتى نجد أنفسنا فى مشهد آخر فى تخلص لطيف رائق ، إذ ينتقل بنا المشهد فى ساحة دعوة عيسى عليه السلام لقومه :

((وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ)) آل عمران (٤٩)

فجاء التخلص حاملا الالتفات من الغيبة إلى المتكلم ، فعمل ذلك على إيقاظ الذهن وحضور المشهد مجسدا حيا .

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

((واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون)) الأعراف (١٥٥-١٥٧)

فقد ذكر الله تعالى الأنبياء والقرون الماضية إلى عهد موسى عليه السلام ، فلما أراد ذكر نبينا صلوات الله عليه وسلامه ذكره بتخلص انتظم به بعض الكلام ببعض ، ألا ترى أنه قال موسى عليه السلام : ((واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة)) . فأجيب بقوله تعالى : ((قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ..)) من حالهم كذا وكذا ، ومن صفتهم كيت وكيت ، وهم الذين ((يتبعون الرسول النبى الأمى)) ثم وصفه صلوات الله عليه بصفاته إلى آخر الكلام [1].

[1] المثل السائر ٢/٢٥٣

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى :

((نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وإِنْ كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ . إِذ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ...)) يوسف (٣-٤)

فجاء التخلص من ذكر العموم فى **(أحسن القصص)** موطنا لعرض قصة يوسف عليه السلام بقوله : **(إذ قال يوسف لأبيه)** ، وهو "بدل من أحسن القصص ، وهو من بدل الاشتمال ، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص ، فإذا قصّ وقته فقد قص . أو بإضمار "اذكر" [١]

[١] الكشاف ٤٤١/٢

الفصل الرابع

إعجاز الكلمة

*** التصوير الصوتي للكلمة**

تحمل الكلمة فى طياتها دلالات صوتية من شأنها أن تصور الحدث وملابساته تصويرا دقيقا ، فيساعد ذلك على إبراز الموقف بجزئياته وظلاله ، فلو وقفنا -مثلا- عند كلمة (خَرّ) ، فنجدها قد وردت فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، ولها دلالات متباينة كلما تغير السياق ..

يقول تعالى :

((فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)) الأعراف (١٤٣)

((قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ)) النحل (٢٦)

ويقول تعالى :

((وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ)) (الحج ٣١)

فقد مثلت كلمة **(خَرَّ)** فى الآيات السابقة مشهدا صوتيا صاخبا شديد الوقع على النفس ، فكان من أثره - فى الآية الأولى - أن صُعق موسى - عليه السلام فسقط على الأرض فى سرعة وشدة - (وصعق الإنسان صَعْقا و صَعَقا ، فهو صَعِقٌ : غُشِيَ عليه وذهب عقله من صوت يسمعه كالهَدَّة الشديدة)[1]

وقد مثّلت كلمة **(خرّ)** فى الآية الثانية هول الموقف وشدته ، فهو مشهد حسى يظهر فيه ضرب البنيان من أسفل فيخر من أعلى فينهار بثقله على

---

[1] ابن منظور - لسان العرب - ط١- دارالكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٣ - مادة (صعق)

رؤوسهم وقوله : **(من فوقهم)** بعد قوله تعالى : **(السقف)** وهو لا يكون إلا فوقهم لتجسيد المشهد بأركانه وأجزائه ، فيظهر الصرح الشامخ وهو يسقط فى قوة ناشرا دويا من الصوت الشديد ، قال ابن الأثير : (ولذكر لفظه **(فوقهم)** فائدة لا توجد مع إسقاطها من هذا الكلام ، وأنت تحس هذا من نفسك ، فإنك إذا تلوت هذه الآية يخيل إليك أن سقفا خر على أولئك من فوقهم ، وحصل فى نفسك من الرعب ما لا يحصل مع إسقاط تلك اللفظة) [1].

أما خرور المشرك فى الآية الثالثة ، فقد مثلته كلمة **(خر)** فى اندفاع عنيف لأنه من مكان عال بعيد عن منال البشر ، فهو **(من السماء)** ، وقد صاحب هذا السقوط الشديد صوت هائل ، زاد من إبراز خرير الريح وزمجرتها الرعدية ..

وقد ظهر جليا فى هذا المشهد الصاخب ، معركة الخطف الدائرة بين الطيور فى السماء ، فهى تتسابق إلى خطف الشرك ، وما يفلت من شئ فيكون مصيره الهلاك سحقا **(سحيق)** .

وقد عكست الآية الكريمة بهذا التصوير البديع حال المشرك وضلاله ، وذلك عن طريق المقابلة بين طرفى المشهد **(السماء)** و **(مكان سحيق)** ، و كأنها ترسم الضلال والتيه فى نفس المشرك ، فهو يرى نفسه وعمله فى السماء ، فى أعلى عليين ، فإذا به ينتهى إلى أسفل سافلين !!

.. وإذا نظرنا إلى الآيات السابقة ، وجدنا كلمة (خرّ) قد وردت فى سياق الآية الأولى مع كلمة **(ربه)** لأن الخرور كان فى مقام التربية والرعاية لموسى - عايه السلام - ولم يكن عذابا أو قضاء عليه ..

---

[1] المثل السائر ٢/١٢٣

أما فى الآيتين الأخيرتين فقد وردت كلمة (خرّ) فى سياق لفظ الجلالة (الله) والحديث عن مكر الكافرين وشركهم ، فكان الخرور عذابا وقضاء عليهم لأن العقيدة الصحيحة والتوحيد الخاص قد انتفيا من قلوبهم ..

وقد تأتى كلمة (خرّ) لترسم مشهدا حسيا خاشعا ، مصحوبا بصوت المناجاة والتضرع والإنابة ، فيظهر الموقف الإيمانى بجلاله وروحانياته ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ)) ص (٢٤)

((وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا)) يوسف (١٠٠)

((إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ)) السجدة (١٥)

إنه خرور جسّد روح الهوىّ وقوة الاندفاع إلى السجود ، وهذا الخرور الحسى قد رسم فى الحقيقة خرور القلب والوجدان ، فظهر أثره جليا على الجوارح .. وقد تضافر نسيج السياق بما يحمل من لغة ليبرز ذلك المشهد حيا مجسدا ، ففى الآية الأولى نجد حرف (الفاء) (فاستغفر) قد أفاد السرعة والتعقيب ليظهر هذا الموقف بما يحمله من إنابة وتضرع لله تعالى ، فيظهر داود عليه السلام وقد انتبه من اختبار الله له ، فيتحول سريعا إلى الاستغفار والخرور فكان الربط بالواو ، وهنا يظهر هذا التناغم النفسى فى تلاحق سريع ، عن طريق الواو (وظن) ، ثم الفاء (فاستغفر) ، ثم الواو (وخرّ) .

أما الآية الثانية فقد وردت فى سياق حرف الواو الذى عمل على دقة نقل مشهد رفع الأبوين إلى مشهد الخرور ، وقام الطباق بين (رفع - خـروا) بتتميم أجزاء المشهد .

وقد استغنى الفعل (خروا) فى الآية الثالثة عن الرابط لاعتماد على بديل قوى ، عمل على تحقيق عنصرى السرعة والمفاجأة معا ، ألا وهو (إذا) ، وفى ذلك إظهار لشخصية المؤمنين فى استسلام تام لله تعالى وعدم التردد فى الانقياد والخضوع .. وقد ظهر التناغم الصوتى والنفسى فى السياق من أجل إظهار هذا الخرور متكامل الأركان والنبضات ، وذلك فى التعبير بالحال (سجدا) ثم الانتقال إلى الجملة الفعلية . ((وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِم)) ثم الانتقال إلى الجملة الاسمية : ((وَهُم لَا يَسْتَكْبِرُونَ)) .. والتعبير بالحال (سجدا) لأجل إظهار حقيقة السجود وهو الخضوع والتذلل لله فى كل أحوال حياتهم ، وهم فى ذلك يداومون التسبيح والحمد لله لا يفترون عنهما ، بل إنهم لا ينتهون من ذكر إلا ويجددونه على الدوام ولذلك عبر بالجملة الفعلية ، أما التعبير بالجملة الاسمية فى وصفهم بعدم الكبر ، فذلك للدلالة على أنهم ثابتون على التواضع لا ينفكون عنه ، ولا تنفك هذه الصفة عنهم ، بل تظل ثابتة وملازمة لهم فى كل أحوال حياتهم.

ويشبه الجرس الصوتى لكلمة (خرّوا) ، كلمة (خُوار) وهو صوت الثور ، ومن أصوات البقر والغنم والظباء والسهام - كما فى اللسان - وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى موضوعين اثنين ، الأول :

((واتَّخَذَ قَومُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّه لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ)) الأعراف (١٤٨)

والموضع الثانى فى قوله تعالى :

((فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ . أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)) طه (٨٨ - ٨٩)

فصوت العجل وخواره ، قد رسم المشهد صوتيا وحسيا فى الآيتين ، وقد جاءت الآيتان بكلمة (جسدا) منصوبة على البدل ، لبيان صورة العجل واستحضاره فى الأذهان ، ومن المفسرين من قال بأنه صار عجلا بلحمه ودمه له خوار ، ومنهم من لم يذهب هذا المذهب ، والله تعالى أعلم .

وليست الآيتان من قبيل التكرار ، ولكن جاءت آية (الأعراف) لإظهار جزء من المشهد ، وهو بداية اتخاذ العجل وصدور الصوت ، ولذلك ختمت الآية بقوله : **(اتخذوه وكانوا ظالمين)** ، فلم يكن ذلك أول ظلمهم ..

أما آية (طه) فجاءت لإظهار جزء آخر من ذلك المشهد ، وهو إخراج العجل على أنه إله يعبد من دون الله بعد اتخاذه وصنعه ، ولذلك جاء التبكيت هنا بقوله تعالى : (أفلا) ترتيبا على الفاء فى (فأخرج) ، بينما لم تأت الفاء فى الآية الأولى لأنها - كما ذكرنا - كانت بداية المشهد .

صِرّ

الصِّرُّ والصِّرَّةُ : شدة البرد ، وريح صِرٌّ صَرْصَر : شديد البرد ، وقيل شديدة الصوت ، وصَرَّ يَصِرُّ صَرًّا وصريرا وصَرْصر : صوّت وصاح أشد الصياح [1]

وقد وردت هذه الكلمة فى سياقات عديدة فى القرآن الكريم تحمل دلالات مختلفة ، يقول تعالى :

---

[1] اللسان . مادة (صرر)

((مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَـاةِ الدُّنيَـا كَمَثَلِ رِيـحٍ فِيـهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ)) آل عمران (١١٧) .

وقال تعالى عن عاد :

((وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)) الحاقة (٦)

وقال تعالى عن هلاك عاد أيضا :

((فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِـزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا)) فصلت (١٦)

وقال تعالى - أيضا - عن عاد :

((إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ)) القمر (١٩)

فقد تباينت السياقات فيما سبق بما تحمله من الصّرّ .. **(ريح فيها صر)** - **(بريح صرصر)** - **(ريحا صرصرا فى أيام نحسات)** - **(ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر)** .. وهى ريح شديدة تطلق الصفير والصياح المصاحب للبرد الشديد.ففى الآية الأولى جعل الريح تحمل الصر فقال : (فيها) ، لبيان حسرة الخاسرين بعد فرحتهم بهبوب الريح لتلقيح الثمر ، فإذا بها تحمل فى طياتها الهلاك ، وكذا شأن الضالين الذين ينفقون أموالهم بغية تحقيق آمالهم ، فإذا بهم قد خسروا وهلكوا وهم يترقبون الربح والفوز .

أما الآيات الثلاثة الأخيرة فهى كلها تتحدث عن هلاك عاد بالريح الصرصر وليس بالريح الصر ، فالصر كما ذكرنا تخفى ما بداخلها ، وكأنها

مصرورة - أى مربوطة - بإحكام لئلا تخرج ما فيها إلا عند الحاجة .. أما هلاك عاد فكان بالريح الصرصر ، والكلمة بتكرار أحرفها توحى بشدة صوتها وكربها ، ولكنه قال مرة : **(بريح صَرْصَرٍ عاتية)** بالجر والوصف وكأننا نرى الأشياء تجر مع الريح كلما حدث هذا الدوى الصوتى فى الكسرة الطويلة للراء فى **(ريح)** ثم توالى الصوت المنون المجرور فى تلاحق **(بريح صرصر عاتية)** .. وهذا العذاب الصرصر يزيد هولا وفزعا إذا جاء على غرة ، ولم يعلم المعذبون مصدره .. وهذا المشهد قد أوحى به بناء الفعل للمجهول **(فأهلكوا)** .

وفى الآيتين الأخيرتين : **(ريحا صرصرًا)** بالنصب والتنوين المطلق ، ليناسب جو المشهد من إرسال الريح وإطلاقها عليهم ، ولذلك صدرت الآيتان بقوله تعالى : **(أرسلنا عليهم)** .. وجاءت آية فصلت بالفاء : (فأرسلنا) دون آية القمر : (إنا أسلنا) ..

ومن الكلمات التى ترسم المشهد الصوتى - أيضا - كلمة : (الصدع) وهو الشق فى الشئ الصلب كالزجاجة والحائط وغيرها - كما فى اللسان - وهذا التصدع لابد أن يصحبه دوى صوتى صاخب ، وهذا الدوىّ الصوتىّ يختلف باختلاف السياق الوارد فيه ، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة منها :

((فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)) الحجر (٩٥)

فالأمر للنبى ﷺ بأن يصدع بما يأمره الله (به) على تقدير محذوف للجار والمجرور ، أى ما تؤمر به ، والصدع بالدعوة يلزمها الجهر بها وقرع الحجة بالحجة .. وقد آثر السياق كلمة **(فاصدع)** على **(فاجهر)** مثلا لبيان أثر الدعوة الإسلامية فى إزالة الشرك وكأنه حائط يتصدع وينهار ، أو ليل بهيم أسود حالك وفجر الدعوة يصدعه ويشقه ليزيله .

وقوله تعالى :

((لو أَنْزَلْنَا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعا مِّن خَشْيةِ الله)) الحشر (٢١)

فتحقق الرؤيا **(لرأيته)** بمصاحبة صوت التصدع (متصدعا) لتظهر صورة ذلك الجبل بشموخه وثباته فيرتجف فى تصدع وخرور .. وقد أوحت كلمتا : (خاشعا - خشية) بما بينهما من أصوات متشابة بصوت شجى يوقظ الروح ويبعثها فى جو من التبتل والابتهال إلى الله ، وكأنه تصدع بكائى فيه التضرع والإنابة .

وفى قوله تعالى :

((والأرضِ ذَاتِ الصَّدْع . إنَّه لَقَوْلٌ فَصْلٌ)) الطارق (١٢)

فالأرض تتصدع أى تتشقق ليخرج منها النبات وفى هذا آية للمتأمل فى النبات وعُوده الرقيق الضعيف ، كيف يشق الأرض فيصدعها ويخرج .. وعلاقة تصدع الأرض بالقول الفصل علاقة قوية ذات دلالات بليغة إذا ربطنا بينهما وبين ما سبقها من آيات حيث يقول تعالى :

((فَلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ . إنَّه علَى رَجْعِهِ لَقَادرٌ . يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ . فمَا لَه من قُوَّةٍ ولا نَاصِرٍ . والسَّماءِ ذَاتِ الرَّجْعِ والأرْضِ ذاتِ الصَّدْع إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ)) .

فسياق الآيات يتحدث عن قدرة الله تعالى فى خلق الإنسان ، فقد خلقه من ذلك الماء الذى يتدفق فى داخله .. وهو سبحانه قادر على إرجاعه مرة أخرى يوم البعث .. ثم كان القسم بالسماء صاحبة الرجع - المطر - ترجع رزق

العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم [1]. ثم القسم بالأرض صاحبة الانصداع عن النبات ، فكان القسم بالسماء والأرض لحملهما مصدر الحياة للإنسان من ماء وزرع بعد خلقه ، ثم يأتي بعد ذلك المقسَم عليه **(إنه لقول فصل)** بالتأكيد بـ (إن) و(اللام) لإفادة إنكار المخاطبين لهذا القول الحق .. فالعلاقة - إذن - علاقة ترابطية ، بداية من الحديث عن خلق الإنسان ضعيفا وبعثه ضعيفا لا يستطيع دفع العذاب عن نفسه ، إلى القسم بأسباب رزقه ووسائل حفظ حياته ، فكيف بمن هذا شأنه أن ينكر حقيقة القرآن ؟!

وقد حملت الآيات سباقا بلاغيا تمثّل فى الأسلوب الإنشائى **(فلينظر)** بلام الأمر دون فعل الأمر المباشر للتأكيد والتمكين وليكون نظر التأمل مستمرا ومتجددا .. ثم الإبهام والتوضيح فى قوله : **(مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ)** ، **(إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر)** . فقوله **(مم خلق)** على الاستفهام والإبهام يناسب الأمر بالنظر فى مطلع الآية الكريمة ، فيتحرك الوعى والإدراك لتلقف الفكرة فى فهم وثبات .. أما تشابه الأطراف فقد ظهر فى ختم الآية بقوله : **(خلق)** وهو ما بدأت به الآية التى تليها : **(خلق من ماء دافق)** .

*** الكلمة الصوتية فى مشاهد القيامة والنار**

كان من طبيعة هذه المشاهد أن تشتمل على كلمات ذات جرس عال وإيقاع عنيف لما تحتوى عليه هذه المشاهد من فزع وهول وعذاب ، يبرز فى صراخ أهله وبكائهم وعويلهم ، يقول تعالى :

((فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ))
ابراهيم (٢٢)

---

[1] ابن كثير - ٦٢٨/٣

فهنا تظهر اللوحة الصوتية بما فيها من صراخ متداخل بين الشيطان وأتباعه ، فلا يستطيع أحدهما أن يغيث الآخر ويُذهب سبب صراخه .
وقوله تعالى :

((وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ)) فاطر (٣٧)

فقوله : (يصطرخون) غير : (يصرخون) ، فالأولى ذات جرس قوى غليظ بما اشتملت عليه من أصوات الصاد مع الخاء ، ثم دخول حرف الطاء بينهما قاطعا الإيقاع المتعالى الصادر من الصراخ ، وكأنها حشرجة تقطع أحبالهم الصوتية فى حناجرهم ..

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا) ، فالاصطراخ يرتفع من حناجرهم مختلطا بالدعاء (ربنا) ، وكانت إجابتهم عن طريق الاستفهام التوبيخى : **(أولم نعمركم)** ، والأمر **(فذوقوا)** .. أى : فيقال لهم : **(أولم نعمركم)** ، فيقولون : بلى ، فيقال لهم : **(فذوقوا)** ، وهذا القول وجوابه محذوف للتحقير من شأنهم . و **(الدّع)** الدفع فى الظهر بعنف فيصدر المدفوع صوتا مرجفا ، ولم يأت (الدع) فى القرآن الكريم إلا فى ثلاثة مواضع كلها تحمل عنف الموقف وشدته ، يقول تعالى :

((يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا)) الطور (١٣)

(يدعون - دعا) فصياغة الكلمة وتأكيدها بالمصدر يوحى بطبيعة المشهد الصوتى والحركى ، فيتمثل مشهد المدفوعين إلى جهنم ، وهم يُضرَبون

بقوة فى ظهورهم ، فترتجف صدورهم محدثة صوتا عنيفا يغلب علـى ظـهوره حرف العين .. وفى موضع آخر يقول الله تعالى :

((أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّ بُ بالدِّ ينِ . فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ)) الماعون (٢)

ورجع الصوت فـى ظـهر اليتيـم ، يظـهر أثـر مـا يلقـاه مـن ألـم معنـوى وانكسار نفسى من جراء الدفع ، أو الزجر والنهر . وكذلك قوله تعالى :

((فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إبلِيسَ أَجْمَعُونَ)) الشعراء (٩٤)

فكلمة (كبكبـوا) "يحـدث جرسـها صـوت الحركـة التـى تتـم بـها ، ومـن الأوصاف التى اشتقها القرآن ليوم القيامة : "الصاخة" و "الطامة" . والصاخـة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن فى ثقلها وعنـف جرسـها ، وشـقه للـهواء شـقا ، حتى يصل إلى الأذن صاخـا ملحـا ، والطامـة لفظـة ذات دوى وطنيـن ، تخيل إليك بجرسها المدوى أنها تطم وتعم ، كالطوفان يغمر كل شئ ويطويه ..

وقد يشتر الجرس والظل فى لفظ واحد مثل (يومَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَـهَنَّم دَعًّا) فلفظ الـدع يصـور مدلولـه بجرسـه وظلـه جميعـا ، وممـا يلاحـظ هنـا أن "الدع" هو الدفع فى الظهور بعنف ، وهذا الدفع فـى كثـير مـن الأحيـان يجعل المدفوع يخـرج صوتـا غـير إرادى فيـه عيـن سـاكنة هكـذا : "أع" ، وهـو فـى جرسه أقرب ما يكون إلى جرس "الدع" [1].

ويشتد الصـوت الصـادر مـن النفـخ فـى الصـور حتـى يصعـق مـن فـى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله : يقول تعالى :

---

[1] سيد قطب – التصوير الفنى فى القرآن – ط١٤ – دار الشروق – بيروت – ١٩٩٣ – ص٩٣

((وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمٰوٰاتِ ومَن فِى الْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ ، ثُمَّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هم قِيامٌ ينظُرُون)) الزمر (٦٨)

ويبلغ الإعجاز الصوتى مبلغه عندما يكون سببا فى الصعق والموت أولا ، ثم هو نفسه يكون سببا فى البعث والحياة بعد الموت .. وكذا صوت النقر فى قوله تعالى :

((فإذا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ ، فَذَلِكَ يَومَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)) المدثر (٨-٩)

وكذا عنف جرس كلمة (الصاخة) و (الحاقة) بما فيهما من صياغة ، وحرف المد ، والتضعيف ، وكلمة : (الطامة) فى قوله تعالى :

((فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى)) النازعات (٣٤)

أى : الحادثة ، أو "الوقعة التى تطم" ، أى تعلو وتغلب بمعنى تفوق أمثالها من نوعها بحيث يقل مثلها فى نوعها ، مأخوذ من طم الماء ، إذا غمر الأشياء ، وهذا الوصف يؤذن بالشدة والهول إذ لا يقال مثله إلا فى الأمور المهولة ثم بولغ فى تشخيص هولها بأن وصفت بـ "الكبرى" فكان هذا أصرح الكلمات لتصوير ما يقارن هذه الحادثة من الأهوال" [١]

ونكاد نرى الأرض وهى تدك من هول الصوت فى قوله تعالى :

((كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ، وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ، وَجِىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ)) الفجر (٢١-٢٣)

---

[١] التحرير والتنوير ٩٠/٣٠

فتكرر الدك ثلاث مرات ، فأحدث إقاعا قويا ، ولا سيما تكراره متلاحقا كتلاحق الصوت المصاحب لانهيار الأرض ودكها ، وجاء الفعل (جئ) مبنيا للمجهول لتسليط المشهد على المجئ به وهى جهنم - عياذا بالله- فيؤتى بها فيزداد المشهد رجفة وخوفا .

وتأتى كلمات صوتية شديدة الإيقاع لترسم جو القيامة فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم كقوله تعالى :

((إِذَا وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ))

وكذا صوت القرع يظهره حرف القاف المشترك مع العين ، فيقرع النفوس والقلوب قبل الآذان : **(القَارِعةُ مَا القَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القَارِعَةُ)**، فكيف إذا تكرر ذلك اللفظ الغليظ ثلاث مرات فى سياق الاستفهام التهويلى ؟!

وتأتى الكلمة الصوتية بجرسها العنيف الصاخب لتناسب الموضوع الذى سيقت فيه : كقوله تعالى

((والعَادِياتِ ضَبْحاً . فالمُورِيَاتِ قَدْحاً . فَالمُغِيرَاتِ صُبْحاً . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً . فَوَسَطْنَ به جَمْعاً . إِنَّ الإنسَانَ لِربِّه لكَنُودٌ ..)) العاديات (١-٦)

فالخيل تضج : تصيح ، وتقدح : تضرب الأرض بأرجلها فيتطاير الشرر من تحت أقدامها ، وتثير النقع - التراب والغبار - فى جو المكان . فهو جو مضطرب صاخب .. وقد ناسبه هذه الكلمات ذات الإيقاع السريع والجرس العالى ، وهو جو يماثل اضطراب الكنود - الحجود - وانفطار فطرته واضطرابها .

وقد تأتى الكلمة لترسم صورة صوتية متكاملة لأهل العذاب فى النار ، يقول تعالى :

((هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِى رَبِّهِمْ . فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ، يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ، يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ، وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ)) . الحج (١٩-٢٠)

فيتداخل صوت تقطيع الثياب النيرانية ، مع صوت صب الحميم فوق الرؤوس ، مع صوت المقامع الحديدية ، ليوحى ذلك كله بطبيعة المشهد الحافل بالأركان والألوان والحركات .. ويظهر فى المشهد موسيقى صاخبة مصدرها تناسق الكلمة وتلاحقها : (اختصموا ـ قطعت ـ يصب ـ يصهر ـ مقامع) .

وتظهر على الوجه الآخر الكلمة الصوتية الحانية ، لتبرز مقام الرحمة والتكريم ، وما أكثر ذلك فى القرآن الكريم .. فمن ذلك قوله تعالى :

((فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ، فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ . قَد صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ)) الصافات (١٠٢-١٠٥)

(قال يابنى ـ قال يأبت ـ وناديناه) كلمات اشتملت على أصوات رقيقة حانية تحمل الرحمة والشفقة . وكذلك قوله تعالى :

((يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وَادْخُلِى جَنَّتِى)) الفجر (٢٧-٣٠) .

وقد يأتى الإطار العام للمشهد ـ يحمل إيقاعا موسيقيا رقيقا لمناسبة الموضوع الذى اشتملت عليه السورة ، كقوله تعالى :

((إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهَارُ يُحَلَّوْنَ فيهَا مِنْ أَسَاوِرَ من ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ، وَلِبَاسُهُم فيهَا حَرِيرٌ . وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ وَهُدُوا إلى صِرَاطِ الحَمِيدِ)) الحج (٢٣-٢٤) .

فالإيقاع السائد فى ذلك المشهد العظيم إيقاع رتيب الحركات والنغمات ، هادئ الجرس شجى الصوت : **(آمنوا ـ الصالحات ـ الأنهار - ـ يحلون ـ ذهب ولؤلؤا ـ حرير ـ وهدوا)** فهى كلمات لينة سلسة ، كأنها مشتقة من سلاسة الأنهار ونعومة الحرير .

وكقوله تعالى فى سورة الضحى :

((والضُّحَى . واللَّيْلِ إِذَا سَجَى ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّك وَمَا قَلَى ، وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأولَى ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّك فتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يتيما فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى ..))

لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديعة ، تتسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية فى التعبير ، الموسيقى الوئيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجى . أصفى آنيْن من آونة الليل والنهار ، وأشف آنيْن تسرى فيها التأملات ، وساقهما فى اللفظ المناسب (١) .

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص١٢٥،١٢٦

* **الكلمة والسياق**

- **تشابه الكلمة :** قد تأتى الكلمة مشابهة لأختها أو مكروه فى سياق آخر من القرآن ولكن بدلالة أخرى يفيدها هذا السياق تبعا لما يعالجه من موضع أو حدث ، ونقف مع بعض النماذج من هذا التشابه الوارد فى القرآن الكريم ، يقول تعالى :

((إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُون . فَالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ الليلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)) الأنعام (٩٥-٩٦) .

(فالق الحب - يخرج الحى - ومخرج الميت - فالق الإصباح - وجعل اليل) تغيرت الكلمات من اسم الفاعل إلى الفعل ثم إلى اسم الفاعل ثم إلى الفعل ، فلم تكن الكلمات على وتيرة واحدة .. فهو مشهد حى زاخرة بالحياة بعد العدم ، يشهد بقدرة الله تعالى ..

(فالق الحب) - **(فالق الإصباح)** إنه تعبير يدل على استمرار تدفق الحياة وتجددها فى النبات ، كتدفق الإصباح والحياة فى الكون بعد الليل .. "إنه ليس إصباح واحد هو الذى فلقته القدرة الإلهية ، ولكنه إصباح يولد كل يوم .. يحيا ، ويموت ، ويحيا ، وهكذا أبد الدهر ، ولو جاء النظم هكذا : **"فلق الإصباح"** إنك لا ترى إلا صبحا واحدا يغيب ثم يظهر ، ويظهر ثم يختفى ، وهو هو لا يتغير وجهه ، ولا يتغير الزمن حوله .. و "الإصباح" "فى مواجهة" " الحب والنوى" . إنه ليس صبحا ، ولكنه "إصباح" .. هو جنين مضمر فى أحشاء الليل ، أو هو ليل يستجن فى أحشائه "إصباح" فإذا انفلق هذا "الإصباح" لاح الصبح وظهر " [1].

---

[1] الأستاذ عبد الكريم الخطيب - إعجاز القرآن -ط١- دار الفكر العربى - القاهرة -١٩٦٤- ١٩٠/١

أما الليل فقد جعله الله للسكن والراحة ، وجعل الشمس للضياء ، والقمر للنور ، وجعلهما لحساب السنين ، فليس فى هذه المخلوقات تدفق الحياة التى نجدها فى الحب والإصباح بحيويتهما وتجددهما ولذلك جاء التعبير بالفعل (جعل) ليدل على تكرار الحدث لغرض محدد .. ويقول تعالى :

((أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)) نوح (١٥-١٦) .

فجاء التعبير عن القمر والشمس بالفعل (جعل) للدلالة على الحدث المتكرر لوظيفة معينة ، وهى الإنارة للقمر ، والسراج للشمس ، فالقمر جسم معتم ، وجرج مظلم ، "وإنما يضئ بما ينعكس عليه من نور الشمس التى هى (سراجه) ، فالنور لا يكون من ذات نفسه ابتداء ، ولابد له من مصدر يبعثه ، فذكر السراج بعد النور ودليل على أن هذا مصدره ذاك" [١]

أما التعبير بالفعل (خلق) فهو يأتى فيما لا يتكرر ، كالآية السابقة ، وكذا هذا الفعل فى كل ما ورد فى القرآن الكريم من الخلق والجعل ، فمن ذلك قوله تعالى :

((قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا)) فصلت (٩)

وقوله تعالى :

((اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ العَلِيمُ القَدِيرُ)) الروم (٥٤)

---

[١] الرافعى – إعجاز القرآن والبلاغة النبوية –ط٤– مطبعة الاستقامة – القاهرة – ١٩٤٥– ص ٢٣٦.

وقوله تعالى :

((واللهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُم أَزْوَاجًا)) فاطر (١١)

- المطر والغيث :

لم تحمل سياقات القرآن كلمة المطر إلا فى العـذاب والأذى وقد وردت فى خمسة عشر موضعا ، منها قوله تعالى :

((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِينَ)) الأعراف (٨٤)

((وَأَمْطَرنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ)) هود (٨٢)

((وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ المُنذَرِينَ)) الشعراء (١٧٣)

((ولا جُنَاحَ عَلَيكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذىً مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُم)) النساء (١٠٢)

أما فى مقام الرحمة والإغاثة ، فجاء التعبير بكلمة (الغيث) ، وذلك فـى ثلاثة مواضع هى فى قوله تعالى :

((إِنَّ اللهَ عندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَـزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ)) لقمان (٣٤)

((وَهُوَ الَّذِى يُنَـزِّلُ الغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَه)) الشورى (٢٨)

((كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُه ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا)) الحديد (٢٠)

فكان الغيث فى هذه المواضع (مواضع إظهار رحمة الله تعالى) يعبر عن حالة من نزل عليهم الغيث ، فقد وصلوا إلى مرحلة بالغة الصعوبة والشدة ، ولذلك قرن السياق كلمة (الغيث) مع الساعة وهولها وخفاء علمها ، وعجز الإنسان عن إدراك علم ما فى الأرحام ، وقرنها فى الآية الثانية بالقنوط ، فجاء نشر الرحمة ، وفى الثالثة قرنها بأزهى حالات الزرع والنبات ووصول الإنسان إلى منتهى سعادته به ، ثم يزول وينتهى .

أما مواضع ذكر نزول (الماء) فهى كثيرة فى القرآن الكريم (وتأتى فى موضع إظهار قدرة الله) ، وتأتى بلفظ (أنزل - نزّل - ينزل) للدلالة على علو الماء المنزل ، وهى إشارة لإعجاز عملية التكوين والإنزال ، فهى مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى ، يعجز الخلق عن إدراكها ، ولذلك يأتى - دائما - التعبير عن نزول الماء من السماء بإسناده إلى لفظ الجلالة (الله) دون الربوبية (رب) ، وفى مواضع قليلة بالضمير ، منها قوله تعالى :

((وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِى الأَرْضِ)) المؤمنون (١٨)

((وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)) الفرقان (٤٨)

((وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)) النبأ (١٤)

ثَمَّ :

لا يشار بها إلا للعبيد على وجه الخصوص ، ولها خصوصية أخرى ، وهى : لا تلحقها كاف الخطاب ، وها التنبيه مثل هناك ، ها هنا .. وهذه الخصوصية المعنوية لهذا الاسم جعلته يأتى فى مواضع محدودة فى القرآن الكريم لها - أيضا - خصوصية عظيمة من حيث الحدث أو تمثيل الموقف ، وقد جاء فى أربعة مواضع هى : قوله تعالى :

((وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ)) البقرة (١١٥)

والآية سيقت فى إظهار خصوصية ملك الله تعالى ، (أى بلاد المشرق والمغرب والأرض كلها لله ، هو مالكها ومتوليها (فأينما تولوا) ففى أى مكان فعلتم التولية (فَثَمَّ وَجْهُ الله) أى جهته التى أمر بها ورضيها" [1] .
وقوله تعالى :

((وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ)) الشعراء (٦٤)

أى قربنا فرعون وجنده من البحر ، وهو مقام إظهار حدث خاص ومعجزة تعلوهما المهابة والرجفة ، وذلك فى إغراق الطاغية وجنده بعده طول فساد وإفساد .

قوله تعالى : ((وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)) الإنسان (٢٠)

والآية الكريمة تصور مقاما غيبيا ، قد تناهى فى العظمة والجلال وبعد المكانة وفعتها ، لأن الحديث عن نعيم الجنة ، وملكها الكبير .
وقوله تعالى :

((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ)) التكوير (١٩-٢١)

فجاء استخدام (ثَم) هنا بخصوصيتها المذكورة سابقة ، للدلالة على المكانة الرفيعة الخاصة فى هذا المقام العلوى لجبريل عليه السلام - والنبى

---

[1] الزمخشرى - ١/١٨٠

محمد ﷺ .. فجبريل : "ليس هو من أفناد - أى جماعات - الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، معتنى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة ، وقوله تعالى : **(أمين)** صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا ، أن الرب عز وجل زكى عبده ورسوله جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا ﷺ "[1]

*** أك - تك - يك**

هى (أكون - يكون - تكون) ، فإذا دخل عليها الجازم صارت لم أكن - لم يكن - لم تكن ، ثم تحذف النون تخفيفا كما ذكر النحاة ..

وقد جاءت فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة ، إلا **(أك)** فإنها لم تأت إلا فى موضع واحد فى سورة مريم : **((قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا))** الآية (٢٠) .

وحذف النون فيه إشارة إلى غرابة الموقف ، بل هو أغرب موقف فى القرآن وفى حياة الخلق عموما .. فهو موقف وحيد فريد فى الحياة ، وهذه الصيغة وحيدة فريدة فى القرآن الكريم كله ، ويدل الحذف أيضا على حذف أدنى شبهة فى حق مريم عليها السلام ومبالغة فى تنزيه ساحتها .

وبالنظر للسياقات التى ورد فيها هذا التعبير ، نجدها - والله أعلم - أنها لم تأت للتخفيف وحسب ، ولكنها أتت لعلة أبلغ من ذلك وأهم ، بدليل أن هذا التعبير قد جاء فى سياقات أخرى عديدة دون حذف النون .. فمثلا يقول تعالى :

((وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)) النساء (٤٠)

---

[1] ابن كثير ٣/٦٠٨

فحذف النون إشارة إلى التقليل .. فلا يضيع شئ عند الله تعالى ، وحتى ولو كانت أقل حسنة فإن الله يضاعفها ، وعبر بـ **(لدنه)** دون **(عنده)** مثلا لما تشتمله الأولى على اللين والرحمة .

ومما يشهد لذلك – أيضا – مجئ حذف النون من (تكن) فى سياق التقليل كما فى قوله تعالى :

((يَـابُنَىَّ إِنَّـهَا إِن تَـكُ مِثْقَـالَ حَبَّـةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْـرَةٍ أَوْ فِـى السَّمٰوَاتِ أو فِى الأرْضِ يَأْتِ بِهَا الله)) لقمان (١٦)

فالمقام مقام إظهار قدرة الله على الإتيان بالشئ مهما دق أو صغر فكان حذف النون إشارة إلى هذه القلة ، وقد ساعد السياق على ذلك بما اشتمل عليه من قول **(إن)** للتقليل دون **(إذا)** الدالة على التحقيق وقوله (مثقال) و (حبة) بالإفراد والتنكير التقليلى ، وقوله **(خردل)** ..

قوله تعالى :
((وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)) النحل (١٢٧)
وقوله تعالى :
((ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)) النمل (٧٠)

خصت هذه الآية – آية النحل – بالحذف دون آية النمل "موافقة لما قبلها ، وهو قوله :

((إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)) النحل (١٢٠)

وهذه الآية - آية النحل - نزلت تسلية للنبى ﷺ حين قتل عمه حمزه ومثل به ، فقال عليه الصلاة والسلام : "لأفعلن بهم ولأصنعن" . فأنزل الله تعالى :

((وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ . واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ولاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ)) النحل (١٢٦-١٢٧)

فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلى . وجاء فى سورة النمل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك" [١]

وقوله تعالى :

((ومن يَكْفُر به من الأحْزَابِ فالنَّارُ مَوْعِدُه ، فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ مِّنه ، إنه الحَقُّ من رَّبِّك ولكنَّ أكثرَ النَّاس لا يُؤمنون)) هود (١٧)

وقوله تعالى :

((فلا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ، ما يعبدون إلا كما يَعْبُد آباؤهم مِّن قَبْلُ ، وإنا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُم غيرَ منقوصٍ)) هود (١٠٩)

فربما كان حذف النون فى هذين الوضعين لنكتة بلاغية قد أشار إليها الشوكانى فى قوله "وهذا النهى له ﷺ هو تعريض لغيره ممن يداخله شئ من الشك ، فإنه ﷺ لا يشك فى ذلك أبدا" [٢]

وقوله تعالى :

((قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا . قَالَ كَذَٰلِكَ قَال رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا)) مريم (٨-٩)

وقوله تعالى :

---

(١) الكرمانى - ١٩٧٦ - ص١٢٦،١٢٧

(٢) الشوكانى - ج٢- ص٦٨٢،٧٣٤

((وَيَقُولُ الإنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا . أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا)) مريم (٦٦-٦٧)

وقوله تعالى :
((هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)) الإنسان (١)

فحذفت النون من آيتى (مريم) ، وثبتت فى آية (الإنسان) .. فالسياق فى آيتى مريم قد دل على موقف المتعجب ، ففى الآية الأولى تعجب زكريا – عليه السلام – من إنجابه ليحيى فى ظل استحالة ذلك من الناحية العقلية والتجريبية ، فزوجته عاقر وهو قد بلغ من الكبر عتيا .. وفى الآية الثانية يظهر موقف الإنسان المتعجب فى إنكار : هل هناك بعث بعد الموت ؟! فالجواب فى الآيتين – إذن – مبنى على إنكار وتعجب .. أما آية الإنسان فالخبر مسوق ابتداء ، دون أن يبنى على موقف سابق فكان الإثبات أولى .

*** الألباب والقلوب**

لُبُّ كل شئ ، ولبابه : خالصه وخياره ، واللباب الخالص من كل شئ ، واللبّ : العقل [1] وقد وردت كلمة (الألباب)فى كثير من المواضع فى القرآن الكريم [2] ، وهى لم تأت إلا جمعا ، ولا تأتى إلا فى موضع فيه حث على التدبر والتذكر أو الهداية والتقوى ، ومن ذلك قوله تعالى :

((وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُو الأَلْبَابِ)) البقرة (٢٦٩)

وقوله تعالى : ((إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِى الأَلْبَابِ)) آل عمران (١٩٠)

---

[1] اللسان مادة (لبب) .

[2] ستة عشر موضعا .

وقوله تعالى : ((**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**)) يوسف (١١١)

وقوله تعالى : ((**لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ**)) ص (٢٩)

بينما يأتى ذكر **(القلب)** مفردا ومثنى ومجموعا ، مجردا أو مضافا إلى ضمير المذكر أو المؤنث .. وقد يأتى ذكر القلب للدلالة على عاطفة الإنسان وأحاسيسه وتأثره ، كقوله تعالى :

((**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**)) الزمر (٢٢)

وقوله تعالى : ((**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**)) الزمر (٢٣)

فدلت كلمة (القلب) فى الآية الأولى على قسوة الأحاسيس والمشاعر ، وبُعد التأثر لذكر الله ، ودلت فى الثانية على رقة العاطفة ولينها ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

((**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**)) آل عمران (١٥٩)

وقوله تعالى :
((ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون)) الحديد (١٦)

وربما جاء القلب ليبيّن نية الإنسان وعزمه ، كقوله تعالى :

((**وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ**)) البقرة (٢٨٣)

((يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِم)) آل عمران (١٦٧)

((أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنهُم)) النساء (٦٣)

((وَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُم)) الأحزاب (٥)

وقد يأتى ذكر القلب للدلالة على روع الإنسان ورباطه جأشه أو هلعه وجزعه ، كقوله تعالى :

((وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِه)) آل عمران (١٢٦)

((وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ)) الأنفال (١١)

((إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا)) القصص (١٠)

- وفى بيان الهلع والجزع ، قال تعالى :

((وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ)) غافر (١٨)

((يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ)) النازعات (٦-٨)

((وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)) الأحزاب (٢٦)

وقد يأتى ذكر القلب فى مقام عدم التدبر والفهم وللدلالة على طمس البصيرة والغفلة ، كقوله تعالى :

((كَذلِكَ يطبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الكَافِرِينَ)) الأعراف (١٠١)

((لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا)) الأعراف (١٧٩)

((وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَه عَن ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاه)) الكهف (٢٨)

((أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَـهُمْ قُلُـوبٌ يَعْقِلُـونَ بِـهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأبصَارُ ولكن تَعْمَى القُلُوبُ التى فى الصُّدُورِ)) الحج (٤٦)

((كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)) المطففين (١٤)

((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) محمد ﷺ (٢٤)

<u>* الفوه واللسان</u>

جاء ذكر الفيه فى القرآن الكريم فى مواضع عديدة [1] كلها على صيغـة الجمع إلا موضعا واحد فى قوله تعالى :

((لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، والَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَـئٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ)) الرعد (١٤)

والسياقات التى وردت فيها هذه الكلمــة ، تحمـل كلـها الـذم والتحقـير أو بيان الكذب والبهتان ، كقوله تعالى :

((قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)) آل عمران (١١٨)

---

[1] فى ثلاثة عشر موضعا

((يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِم)) التوبة (٣٢)

((كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً)) الكهف (٥)

- أما ذكر اللسان فيأتى فى مواضع المدح والذم على السواء ، كقوله تعالى :

((وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً)) مريم (٥٠)

أى : جعل لهم الثناء الحسن .
وكقوله تعالى :

((فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً)) مريم (٩٧)

وكقوله تعالى فى الذم :

((وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى)) النحل (٦٢)

- وقد يأتى ذكر اللسان على سبيل المجاز ، كقوله تعالى :

((وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)) ابراهيم (٤)

أى بلغة قومه .
* يقول تعالى :

((وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ، وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا ، قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ ، هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ)) آل عمران (١٦٧)

ويقول تعالى :

((سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا)) الفتح (١١)

فجاء التعبير **(بأفواههم)** فى آية (آل عمران) ، وجاء التعبير **(بألسنتهم)** فى آية (الفتح) ، والعلة فى ذلك ـ والله أعلم ـ أن آية آل عمران تحدثت عن المنافقين وهم أشد خبثا وخطرا من الكافرين ، فناسبهم الأفواه ، لبيان أن كلامهم لم يجاوز أفواههم ، وإنما كان خارجا عن الحقيقة .. أما فى آية الفتح ، فجاء الحديث عن قوم مخصوصين وهم الأعراب الذين تخلوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية ، ولذلك جاء التصريح بقوله : **(لكم)** فى قوله : **(قل فمن يملك لكم من الله شيئا)** ، على حين لم يأت التصريح بها فى آية المائدة فى قوله تعالى :

((قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)) آيه (١٧)

فهذه الآية الكريمة عامة فى المسيح وأمه ومن فى الأرض جميعا ، فليس هنا مخاطب خاص [١]

---

(١) كشف المعاني ص١٤٧

*** تفرد الكلمة :**

إن "المعيار الذى نقيس عليه تصنيف الكلمات بأنها مألوفة أو بعيدة المعنى ، معيار شخصي ، فيجب أن نضع القارئ أو المستمع فى عين الاعتبار من حيث معرفتهم بهذه الكلمات أولا .. ولو كان لديك كلمتان بنفس المعنى ، فمن الأفضل اختيار الكلمة الأقصر ، ليس لاختصار الوقت ، ولكن لأن الكلمات القصيرة تبدو أكثر ألفة لدى القراء والمستمعين ، ولكن هذا لا ينفى أن هناك مجموعة من الكلمات ذات الخمس مقاطع تكون مألوفة أكثر من أخريات ذوات مقطع واحد[1]" .. والقرآن الكريم قد خاطب العرب بما عرفوه وألفوه ، فلم يكن أسلوبه غريبا عليهم ، حتى الكلمات التى عدها العلماء غريبة ووحيدة فى القرآن ، قد عرفها العرب واستخدمها الشعراء فى أشعارهم ، بل صارت الكلمات الثقيلة الأحرف والنطق نحو (فسيكفيكهم الله) و (اثاقلتم) مستساغة المنطق والفهم لاستدعاء السياق لها ..

وقد أتت بعض الكلمات وحيدة فى القرآن الكريم كله ، وذلك من حيث الصياغة والمادة ، أو من حيث الصياغة فقط وقد وردت فى مسائل نافع بن الأزرق .

ينعيه :

قال تعالى : ((انظُرُوا إِلَى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ)) الأنعام (٩٩)

(ينعه) أى : نضجه ، وهذه الكلمة لم تتكرر فى القرآن الكريم فى صيغتها ومادتها ، وذلك لأن سياقها لم يتكرر ، فالأمر هنا بنظر التأمل والتدبر ، ليرى الإنسان قدرة الله فى الثمر ونضجه وكيف تحول من حبة فى الأرض إلى ثمر ناضج معتدل ..

---

[1] Dennis Freeborn : Style, test Analysis and Linguistic Criticism. A Course Book in English grammar Christine Mcdonald, 2nd Edition, 1996 P.P. 95.

وقد أتى الحديث عن الثمر فى القرآن الكريم فى عشرين موضعا غير الموضع السابق ، ولم يأت الأمر بالنظر إلا فى هذا الموضع ، وكان سياق الآيات الأخرى فى معظمها يحمل التذكير بنعمة الله تعالى ، كقوله :

((كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)) الأنعام (١٤١)

((وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ)) إبراهيم (٣٢)

((يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ)) النحل (١١)

* ريشا : قال تعالى :

((يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)) الأعراف (٢٦)

(ريشا) الخصب والمعاش والحال والأثاث واللباس الحسن الفاخر [1] فجمعت الكلمة كل مظاهر الزينة بعد ستر العورة وسد الضرورة لم يذكر في القرآن الكريم غير هذه الكلمة ،وقد جمعت كل المعاني المذكورة في لفظ واحد، ولا يقوم بذلك غيرها ، وقد تدرج السياق من الأدنى في اللباس الذي يواري السوآت الي الرياش ، ثم الانتقال الي اللباس الحق الخالد (لباس التقوى).

* حنانا قال تعالي :

---

(1) اللسان مادة (ريش)

((يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً . وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً)) مريم (١٣)

فلم تأت فى كتاب الله كلمة (حنانا) إلا فى هذا الموضع ، فهى وحيدة فى مادتها وصياغتها ، وجاءت لتعبر عن موقف فريد ، وهو مجئ هذا المولود (يحيى) لأب قد طعن فى السن (زكريا عليه السلام) ولأم عاقر ، يقول تعالى :

((يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا))
مريم (٧-٨)

فكانت هذه الكلمة (حنانا) أقدر من غيرها على التعبير عن أثر هذا المولود لأبويه فى مثل ظروفهما، ومدى ما يلقاه الأبوان الكبيران من حنان الابن ، ومما يشيع جو الرحمة والحنان مجئ الحنان فى الآية مسندا إلى قوله تعالى : (من لدنا) مؤثرا ذلك على (من عندنا) مثلا . لأن اللّدن : اللين من كل شئ كما أفاده اللسان

* فأجاءها المخاض

قال تعالى :

((فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)) مريم (٢٢-٢٣)

ولم يأت الفعل : (أجاء) رباعيا مزيدا بالهمزة إلا فى هذه الآية . وأما الثلاثى منه فكثير ، مبنيا للمعلوم وللمجهول ، والمعنى الذى اختاره المفسرون : ألجأها واضطرها ، وفى الإجاءة بها من معنى شدة الموقف وعسر الاضطرار

، ما ليس فى كلمة "ألجأها" بما تفيد من معنى الملجأ والملاذ ، بصريح آياتها الثلاثة فى الكتاب المحكم [1] يقول تعالى :

((لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ)) التوبة (٥٧)

((وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم)) التوبة (١١٨)

((مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ)) الشورى (٤٧)

ضيزى

قال تعالى : ((أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)) النجم (٢١-٢٢)

الضيز : الظلم والجور ، فهى قسمة جائرة ، وهذه الكلمة وحيدة فى القرآن الكريم من حيث الصياغة والمادة ، وهى "لفظة غريبة من أغرب ما فيه ، وما حسنت فى كلام قط إلا فى موقعها منه ، ومع ذلك فإن حسنها فى نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أدرت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ، فإن السورة التى هى منها – وهى سورة النجم – مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هى فى معرض الإنكار على العرب . إذا وردت فى ذكر الأصنام وزعمهم فى قسمة الأولاد .. فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التى أنكرها ، ووصفت حالة المتهكم فى

---

(1) د . عائشة عبدالرحمن – الإعجاز البيانى للقرآن –ط٢– دار المعارف – القاهرة –١٩٨٧– ص٣٢٥ . وقد قامت بتحقيق ودراسة مسائل نافع بن الأزرق .

إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذين المدَّين فيها إلى الأسفل والأعلى ، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية" [1].

*** أبابيل :**

قال تعالى : ((وَأَرْسَلَ عَلَيْهِم طَيْراً أَبَابِيل)) الفيل (٣)

لم ترد فى القرآن الكريم كله إلا فى هذا الموضع ،وتفردها يدل على تفرد الحدث والموضوع ، وهو هلاك أصحاب الفيل بالمعجزة الإلهية ولم يذكر الفيل فى القرآن كله – أيضا – إلا فى هذا الموضع وهو وصف لعذاب لم يتكرر ، فهو حدث فريد ناسبة هذا التعبير الفريد ، والكلمة فى ذاتها تقوم بتصوير المشهد تصويرا حيا دقيقا .. فهى طير أبابيل ، تذهب وتجئ فى حركة مضطربة لتضرب رؤوس أصحاب الفيل بالحجارة التى من (سجيل) ، فتبلبل عليهم رؤوسهم – كما يقول ابن عباس – وتكرير الباء واللام فى اللغة العربية "فيما فيه ملحظ اضطراب واختلاط . بلبلة الأسنة ، اى اختلافها . بلبل القوم : هيَّجهم ، وفارقت العربية بين الحسى فى البلبلة ، والمعنوى فى البلبال ، للهم الشديد يضطرب له البال من اختلاط الوساوس وكثرة الهواجس . وكل ذلك يعطى كله "أبابيل" حسن البلبلة والبلبال" [2]

---

[1] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٢٦١

[2] الإعجاز البيانى للقرآن ص٤٤٩.

خـاتمـة

بعد أن عشنا هـذه القطـوف اليانعـة فـى بسـتان القـرآن الكريـم ، وعشـنا أسلوبه المتميز وسياقاته المتفـردة التـى قـامت بدورهـا الكـامل ليس فـى إبـراز المعنى واستجلاب الكلمة المناسبة فحسب ولكـن ـ أيضـا ـ فـى إظـهار بواعـث الموقـف وكوامنـه ، وإظـهار مكنـون شـخصيات المشـاهد المختلفـة ، فالمشـهد بسياقه اللغوى والموضوعى ، يختلف فيما إذا كان يتحدث عـن الطبيعـة وقـدرة الخالق ، أو الجنة أو النار أو الإيمان أو النفاق ، فتسير اللغـة وأسـلوب تركيبـها حسبما يقتضيه ذلك المشـهد ليـأتلف اللفـظ مـع المعنـى ، فـيرق ويغلـظ ، ويليـن ويشتد حتى يظهر المشهد فى صورة حسية حاضرة ..

ـ فالاستفتاح بالأساليب الإنشائية أو الخبرية يكون تبعا لموضوع السورة ومراعاة لحال المخاطب .. بل إن اختيار نوعية الأسلوب الإنشائى من نداء أو دعاء أو غيرهما ، يحدده نوعية الموضوع وسياق الخطـاب ، وكـذا الأمـر فـى الافتتاح بالأسلوب الخبرى ونوعيته الاسمية أو الفعلية الماضية أو الاستمرارية ، كقوله تعالى فى مطلع سورة الصف : **((سـبح لله مـا فـى السموات ومـا فـى الأرض))** بالفعل الماضى (سبح) ، وهذا لكى تتناسب مـع خاتمـة السـورة قبلـها (سورة الممتحنة) بالفعل الماضى والتعبير عن انتـهاء الشـئ ، وذلـك فـى قولـه تعالى :

((يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ)) الممتحنة (١٣)

فجاء الإخبار فـى افتتـاح سـورة الصـف بالمـاضى (سـبح) ، ليبلـغ مثـل هؤلاء بأنهم إذا كانوا قد جحدوا تسبيح الله ، فقـد سـبح لله كـل مـا فـى السـموات والأرض مع استغناء الله عن ذلك ، وعدم تأثره به سلبا أو إيجابا ، ولذلـك ختـم آية التسبيح بقوله : (وهو العزيز الحكيم) .

وقد سارت الآيات فى تلاحهما والسورة فى تناسقها وتآلفها مع بدايات وخواتيم أخواتها فى انسجام متلاحق كحلقات متشابكة يسلم بعضها بعضا فى فى تناسق عجيب وترتيب فريد ، مما يشير إلى توقيف ترتيب السور وتبرز صورة من صور إعجاز التخلص والترتيب ، والله تعالى أعلم .

على أن التخلص القرآنى قد جاء منسجما مع النفس البشرية السوية فلا يكاد يشعر به القارئ أو السامع ، فيكون المتلقى منتظما وجدانيا وعقليا يسير فى إطار واحد دون توتر أو اضطراب .. وقد جاء تخلص على غير المعتاد ، مما يتطلبه طبيعة الموقف والسياق والمخاطب ، كما جاء فى قوله تعالى :

((زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، واللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَالِكُم ، لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ ..)) آل عمران (١٤-١٥)

فهذا انتقال من ملذات الدنيا وشهواتها بإغراءاتها المتعددة إلى نعيم الآخرة والصفات المتعددة لعباد الله ، فكان السياق وطبيعة مشهده يستلزم تلك الوقفة (قل ..) لتصحو النفس من غفوتها ، وتنقل تلك النقلة المضادة الاتجاه .. وكقوله تعالى :

((واذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ...)) ص (٤١)

((واذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ...)) ص (٤٥)

((هَذَا ذِكْرٌ ، وإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ)) ص (٤٩)

((هَذَا ، وإنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)) ص (٥٥)

فالتخلص هنا احتاج إلى وقفة نظرا لطبيعة الموقف وأهميتـه ، فـالحديث ينتقل من ذكر قصص الأنبياء للعظة والعـبرة والامتثـال والقـدوة ، وينتقـل مـن حدث مع نبى إلى حدث مع نبى آخر ، ثم ينتقل من الأنبياء إلى عباد الله المتقين ، ثم إلى الطاغين ..

وقد يكون التخلص بالتوقف للزجر والردع ، فلا ينساب الحديث انسـيابا شعوريا كغيره ، ولكن ينتقل محدثا هزة عنيفة ورجّة قوية ، كقوله تعالى :

((يَقُولُ الإنسَـانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَـلَّا لَا وَزَرَ . إلَـى رَبِّـكَ يَوْمَئِـذٍ الْمُسْتَقَر ..)) القيامة (١٠-١٢)

وقد حمل القرآن الكريم فى سياقاته مظاهر الإعجاز اللغوى بما تضمنـه من انتظام الأحرف والكلمات فى جملها .. فمن كلم القرآن مـا لـم يـأت إلا مـرة واحدة لحكمة يحملها سياقها وموضوعها ، كما تظهر مظاهر الإعجـاز اللغـوى فى وضع الكلمات فى موضع يناسبها بحيث لا يؤدى المعنى غيرها ، فمن ذلـك مجئ كلمة (القرآن) فى مواضع تنبئ عن حـال كونـه مقـروءاً متدبـراً ، كقولـه تعالى :

((وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ والْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُم تَغْلِبُونَ)) فصلت (٢٦)

فـالقرآن مقـروء وهـو سـبيل التدبـر ، ولذلـك قـال قولـهم : (لا تسـمعوا) وطلبوا اللغو فيه والتشويش عليه وقوله تعالى :

((أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)) محمد ﷺ (٢٤)

فتناسقت كلمة (يتدبرون) مع (قلوب) ، ولم يقل مثلا الكتاب فى مواضع القرآن ، (ورتـل القـرآن ترتيـلا) (المزمل ٤) ، (فـاقرءوا مـا تيسـر مـن القـرآن) (المزمل ٢٠) فالكتاب اسم جامع لآيات الكتاب وسوره ، ويأتى ذكره فى مواضع عموم التنزيل كقوله تعالى :

((الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)) البقرة (١-٢)

وربما جاء الجمع بينهما كقوله :

((الٓر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ)) الحجر (١)

وكان من مظاهر الإعجاز القرآنى : إعجاز الوصف .. فكلما رأينا سابقا كيف جاءت الصفة فى مكانها اللائـق بـها ، فوصـف المؤمنيـن بالمحسـنين فـى مواضع ، والمخلصين فى مواضع أخرى .. كـلٌ حسبما يقضيـه سـياقه ويمليـه موضوعه ، ورأينا مثلا - كيـف جـاء وصـف الشـيطان بـالرجيم فـى موضـع ، وجاء وصفه بالمارد والمريد فى سياق آخر ، فلا نملك إلا أن نقـول : (آمنـا بـه كل من عند ربنا) ..

وكان من بلاغة أساليب القرآن ، مجئ الوصف فـى موضـع الحـذف ، كما جاء فى موضع الذكر ، كقوله تعالى :

((.. وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)) الكهف (٧٩)

فحذف الصفة ، أى : كل سفينة صالحـة ، وفيـه تصويـر لجـبروت ذلـك الملك وظلمه وكثرة اغتصابه للسفن .

وكقوله تعالى :

((فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ)) القصص (٦٧)

فحذف الموصوف ، والتقدير : وعمل عملا صالحا لأنه ورد في معرض الحديث عن التوبة ، ومن دلائلها كثرة العمل الصالح وإخلاصه لله ، وكذا قوله تعالى : (من المفلحين) تقديره : أن يكون من القوم المفلحين ، وقد يأتي مثبتا في موضع آخر ، كما في قوله تعالى :

((فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا ..)) الكهف (١١٠)

وهناك كلمات معينة ترد في وصف الشئ ونقيضه ، ككلمة (عظيم) مثلا ، تأتي في وصف العذاب والخزي والكرب .. كقوله تعالى :

((إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)) الأعراف (٥٩)

((فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ)) التوبة (٦٣)

((وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) النمل (١٠٦)

((وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ)) الصافات (١١٥)

ويأتي أيضا الوصف بعظيم في قوله تعالى :

((وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) البقرة (١٠٥)

((للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)) آل عمران (١٧٢)

((وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) التوبة (٧٢)

ومن ذلك - أيضا - مجئ الوصف بكلمة (مبين) فى الشئ ونقيضه ، كقوله تعالى :

((وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ)) آل عمران (١٦٤)

((وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّه لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ)) الأنعام (١٤٢)

((قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ)) يونس (٢)

وقوله تعالى :

((مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)) الأنعام (١٦)

((فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)) النحل (٣٥)

((تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)) الشعراء (٢)

وقد تأتى الكلمة - أحيانا - حاملة الصفة اللونية فى سياق مشهد ينبض بإبراز مظاهر قدرة الله ، كقوله تعالى :

((وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)) فاطر (٢٧)

وكانت **الصفة الخضراء** هى الأكثر ورودا فى القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى :

((الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا)) يس (٨٠)

وقوله تعالى :
((إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ)) يوسف (٤٣)

وقوله تعالى :
((مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ)) الرحمن (٧٦)

وقوله تعالى :
((عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ)) الإنسان (٢١)

وقوله تعالى :
((وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ)) الكهف (٣١)

* وقد تكون الصفة حاملة اللون الأصفر ، كقوله تعالى :

((ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا)) الزمر (٢١)

وقد وقعت (مصفرا) صفة لمحذوف تقديره : نباتا مصفرا .

أما النعت السببى فقد جاء فى بعض المواضع ليبرز أهمية النعت ودوره فى فاعلية المشهد والحدث ومن ذلك قوله تعالى :

((قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)) البقرة (٦٩)

فالنعت السببى (فاقع) صور المشهد حسيا وأبرز اللون الأصفر فى شدته وصفائه ، لأنه موضوع السياق ، فهو تشديد عليهم كما شددوا على أنفسهم ، وجملة (تسر) صفة وأنث اللون لوجهين : أحدهما : أن اللون صفرة ها هنا فحمل على المعنى والثانى : أن اللون مضاف إلى المؤنث فأنث ، كما قال : ذهبت بعض أصابعه ، وقوله تعالى : "يلتقطه بعض السيارة"[1]

وقوله تعالى :
((وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)) البقرة (٢٨٣)

فقد برزت خطورة كتمان الشهادة عن طريق النعت **(آثم)** فظهر عِظَم الإثم وفداحته .

وقوله تعالى :
((رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا)) النساء (٧٥)

فالنعت السببى (الظالم) أبرز خُلق أهل تلك القرية ، وبيّن سبب الدعاء بالخروج .

وقد تأتى الصفة حاملة الطعم والتذوق لحكمة يقتضيها السياق والمشهد ، كإبراز النعمة فى خاصية تناول السمك ، فيقول تعالى :

((وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)) النحل (١٤)

وكذلك - أيضا - وصف الماء بالطهارة والنقاء لبيان نعمة الله وقدرته ، كما فى قوله تعالى :

---

[1] التبيان فى إعراب القرآن ٤٢/١

((وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا)) المرسلات (٢٧)

((فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ)) الملك (٣٠)

أو تأتى الصفة التذوقية للماء لبيان مدى قبحه ومرارته والعذاب الكامن فيه ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى :

((مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ)) إبراهيم (١٦)

وقد تأتى الصفة بأغراض أخرى غير ما سبق ولكن على قلة كمجيئها بغرض التخصيص ، مثل قوله تعالى :

((حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ..))
النساء (٢٣)

فجاء التخصيص للأمهات المرضعات بقوله تعالى : (اللاتى أرضعنكم) ، وكذلك تخصيص الربيبة بحرمتها على زوج أمها ، وذلك فى قوله : (وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم) ، ثم جاء الوصف لتخصيص التحريم فى حالة الدخول : (اللاتى دخلتم بهن) ، وكذلك - أيضا - تخصيص زوجة الابن الذى من صلب الأب بالحرمة على أبيه : (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) ، فهذا الوصف (الذين من أصلابكم) أخرج كل بنوة غير حقيقية.

وكذلك خصصت الصفة النكاح من الفتيات المؤمنات فى قوله تعالى :

((وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ)) النساء (٢٥)

وفيه مدح - أيضا - لهن ، لكون غير المؤمنات يخرجن من هذا التخصيص ، ومثله - أيضا - ما جاء فى قوله تعالى :

((فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ)) النساء (٩٢)

ومثل ذلك - أيضا - ما جاء للتخصيص والمدح فى قوله تعالى حكاية عن إبليس اللعين :

((قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)) الحجر (٤٠)

وقد تأتى الصفة للعموم والاستغراق ، وهى - أيضا - قليلة ، كقوله تعالى :

((وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)) الأنعام (٣٨)

فجاء الوصف فى قوله تعالى : **(فى الأرض)** وقوله : **(يطير بجناحيه)** لزيادة التعميم والإحاطة ، كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرض السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها ، والغرض فى ذكر ذلك ، الدلالة على عظم قدرته ، ولطف علمه وسعة سلطانه.[1]

---

[1] الكشاف ٢١/٢

ويرى الناظر فى أساليب القرآن مدى دقة تراكيبه ووضوحها وعمق معانيها ، فالكلمة المختارة فى التركيب والتصوير لها قدرة إعجازية على تصوير المواقف وأصحابها وإبراز أعماق نفوسهم ، فيقف الرجل العامى ببساطة فهمه وتذوقه لينهل منه ما يشاء دون عنت أومشقة ، وينظر إليه صاحب البيان والتأويل والبلاغة فيستخرج منه ما يشاء من درر وعجائب .. وهذا القرآن بأسلوبه ولغته هو الذى تحدى العرب بفصاحتهم وبلاغتهم وقد عجزوا أيما عجز ، وظلت أساليبه على الدوام تضئ الطريق لكل صاحب علم ..

ولا شك أن القرآن الكريم بإعجازه اللغوى والبلاغى قد شكل الوجدان والفكر للمسلم بصفة عامة ، والأديب العالم والناقد بصفة خاصة ، فتذوق الأساليب والمعانى ومواضع الأحرف والكلمات ، وظهر ذلك جليا فى علمائنا السابقين ، وكان من أبرزهم : أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) ، والجاحظ (ت٢٥٥هـ) ، وابن قتيبة (٢٧٦ هـ) ، والآمدى (ت ٣٧١ هـ) والقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى (٣٩٢ هـ) ، وعبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١ هـ) وغيرهم ممن أسهموا بقوة فى ترسيخ علوم القرآن وعلوم العربية وآدابها ، فكانت أعمالهم تأصيلا لتشكيل فكر العلماء اللاحقين من العرب وغير العرب "كفرديناند سوسير"[١] (١٨٧٥-١٩١٣م) ، و "الكونت دى بوفون"[٢] (١٧٠٧-١٧٨٨) ، و "شارل بالى"[٣] (١٨٦٥-١٩٤٧م) ، وغيرهم .

[١] عالم سويسرى ، فصل بين علم اللغة وعلم الأسلوب على قول بعض الكاتبين .

[٢] كاتب فرنسى شهير ، له باع طويل فى الأسلوب والأدب والعلوم الطبيعية .

[٣] من أشهر علماء فرنسا ومؤسس علم الأسلوب فيها .

المصادر والمراجع

١- ابن الأثير - المثل السائر - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - بيروت - ١٩٩٥ .
٢- البقاعى - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - تحقيق عبد الرازق المهدى - ط١- دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٥ .
٣- ابن جماعة كشف المعانى فى المتشابه من المثانى - تحقيق د. عبد الجواد خلف - ط١- دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٠ .
٤- أبو حيان - البحر المحيط - ط٢- دار الفكر - ١٩٨٣ .
٥- الرافعى - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - ط١- مطبعة الاستقامة - القاهرة - ١٩٤٥ .
٦- الرازى - التفسير الكبير - ط٣- دار إحياء التراث العربى وتحقيقه - بيروت - ١٩٩٩ .
٧- الرمانى - النكت فى إعجاز القرآن - تحقيق - محمد خلف الله و د. محمد زغلول سلام - ط٤- دار المعارف - القاهرة - ١٩٩١ .
٨- الزركشى - البرهان فى علوم القرآن - تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم - دار التراث - القاهرة .
٩- الزمخشرى - الكشاف - تحقيق مصطفى حسين - ط٣- دار الريان للتراث - القاهرة - ١٩٨٧ .
١٠- السعدى - تفسير (تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان) - دار الحديث - القاهرة - ٢٠٠٠ .
١١- سيد قطب - التصوير الفنى فى القرآن - ط١٤- دار الشروق - بيروت - ١٩٩٣ .
١٢- سيد قطب - فى ظلال القرآن - ط٢٥- دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٦
١٣- الشوكانى - فتح القدير - تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - ط ٢- دار الوفاء - المنصورة - ١٩٩٧ .

١٤- د. عائشة عبد الرحمن - الإعجاز البيانى للقرآن - ط ٢- دار المعـارف - القاهرة - ١٩٨٧.
١٥- ابـن عاشـور - تفسير التحريـر والتنويـر - الـدار التونسـية للنشـر - الجماهيرية العربية الليبية .
١٦- عبد القاهر الجرجانى - دلائل الإعجاز - تحقيق الشيخ محمـود شـاكر - الهيئة العامة المصرية للكتاب - القاهرة - ٢٠٠٠.
١٧- العكبرى - التبيان فى إعراب القرآن - ط ١- المكتبة التوفيقية - القاهرة - ١٩٧٩ .
١٨- عبـد الكريـم الخطيـب - إعجـاز القـرآن - ط ١- دار الفكـر العربـى - القاهرة - ١٩٦٤ .
١٩- د. فتح الله سليمان - الفعل فى سورة البقرة - مكتبـة الآداب - القـاهرة - ١٩٩٧.
٢٠- ابن كثير - تفسير القرآن العظيم - تحقيق الشيخ الصـابونى - ط ٧- دار القرآن الكريم - بيروت - ١٩٨١.
٢١- الكرمانى - أسرار التكرار فى القرآن الكريم - تحقيق عبد القادر أحمـد عطا - ط٢- دار الاعتصام - القاهرة - ١٩٧٦.
٢٢- محمد رشيد رضا - تفسير المنار - ط٤- دار المنار - القاهرة - ١٩٥٤
٢٣- د . محمد موسـى - التنكير وأثره البلاغى فـى القـرآن الكريـم - ط١- مطبعة الأمل - المنصورة - ٢٠٠٠.
٢٤- ابن منظور - لسان العرب - ط١- دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٩٣.

مراجع أجنبية

1-Dennis Freeborn : Style, test Analysis and Linguistic Criticism. A Course Book in English grammar Christine Mcdonald, 2nd Edition, 1996 P.P. 95.

2- Jean Dulois Dictionaries de linguistic et des suences du language, Paris, lerousse, 1994, P. 116..

قائمة المحتويات

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٠/١٥٨٦٢